كنيسة مارمرقس
القبطية الأرثوذكسية
بمصر الجديدة

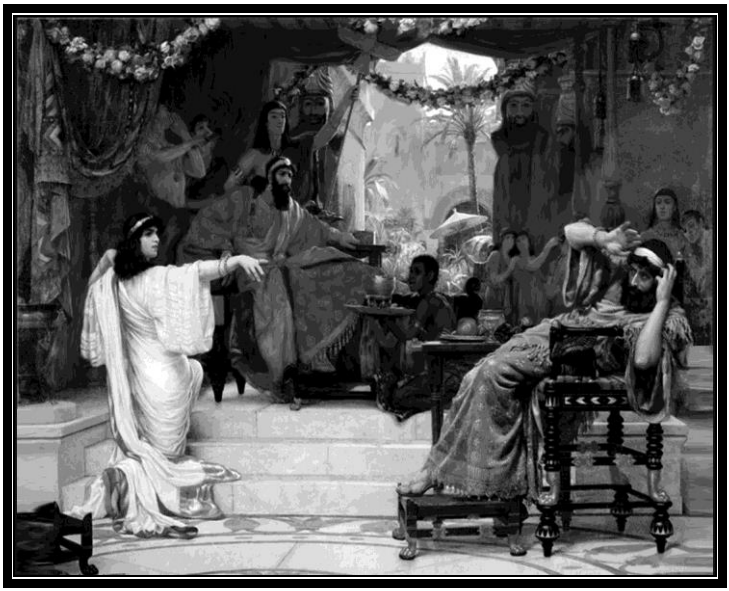

قصـــة أستيـــر

تقديم ومراجعة
أبونا داود لمعي

بقلم
د. هاني صبحي

تقديم

أستير ... الملكة الجميلة ..... ذات القلب النقي ..... اليتيمة ..... الحكيمة .... ذات الفضائل الثمينة.

ليست مجرد قصة تاريخية مثيرة في أحداثها، لكنها مدرسة نتعلم فيها الصلاة والصوم والغيرة المقدسة على شعب الله ... نتعلم فيها الخضوع والطاعة والأمانة والشجاعة والسجود لله وحده ... ونرى فيها نهاية الظلم ومصير الظالمين.

وقد صارت أستير مثلاً مبكراً للملكة الحقيقية أمنا كلنا والدة الإله القديسة العذراء مريم، التي صارت ملكة السمائيين بحياة القداسة والصلاة والخضوع لله، وكما انتصرت أستير على هامان الشرير هكذا انتصرت أمنا العذراء بتواضعها على كبرياء الشياطين.

نترككم مع تفاصيل القصة المثيرة وتأملات الدكتور هاني الغزيرة، مصلين للرب أن يجعل هذا الكتاب إضافة لحياتكم الروحية.

بصلوات قداسة البابا شنودة الثالث معلم المسكونة، نرجو لكم غذاءً شهياً من كلمة الله الحية المشبعة. ... صلوا من أجل ضعفي و لإلهنا القدوس الآب والابن والروح القدس كل تسبيح وإكرام من الآن وإلى الأبد.

أبونا / داود لمعي

مقدمة

يزخر الكتاب المقدس بالكثير من القصص الحقيقية التي ألهمت خيال الأدباء ليقدموها في أعمال روائية تجعل القارئ يتعايش مع الأحداث... ولكن قصة أستير بالذات تحتل في قلبي مكانة خاصة.

فهي إحدى القصص التي يتجلى فيه العدل الإلهي في أبهى صوره، فإن كنا في كثير من القصص الأخرى نعجز عن فهم تدبير الله ورحمته في موقف أو أكثر، إلا أن قصة أستير يظهر فيها جلياً الترتيب الإلهي الذي يجعلنا نثق **"أَنَّ كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ، الَّذِينَ هُمْ مَدْعُوُّونَ حَسَبَ قَصْدِهِ."** (رو٨:٢٨)

ومع بداية عام ٢٠١١ بدأت في كتابة قصة أستير، ووسط ظروف العمل مضت الكتابة ببطء حتى كانت ثورة ٢٥ يناير وما تلاها من حظر للتجول، مما أجبرني على البقاء في المنزل فتفرغت لوقت أطول لكتابة هذه الصفحات.

ولكن المذهل حقاً أن القصة التي أكتب تفاصيلها كانت تتجسد أمامي فيما يحيط بي من أحداث يومية!!

فيهبط من كان على العرش ليذهب وراء القضبان ... والعكس أيضاً صحيح.... وكأن الله يؤكد أن ما حدث بالأمس هو ما يتكرر مرات ومرات عبر التاريخ.

لذا فنحن لا نستعرض تاريخاً مضى، بل حاضراً ومستقبلاً في تلك القصة المليئة بالتحولات العجيبة التي تفوق خيال أبرع مؤلفي القصص والروايات الدرامية .... وقد يلزم أن نشرح للقارئ شيئاً من التاريخ حتى يستطيع أن يتعايش مع أبطال القصة.

فبعد سقوط مملكة يهوذا على يدي نبوخذنصَّر وسبي خيرة شبابها ورجالها إلى بابل ظل الشعب مسبياً وغير مسموح لأي منهم بالعودة إلى الوطن. وتسقط إمبراطورية بابل على يدي كورش الفارسي الذي يصدر مرسوماً يسمح فيه لليهود بالعودة إلى إسرائيل بعد ٥٠عاماً من السبي.

فيعود الفوج الأول منهم بقيادة زَرُبابل ويشرعون في بناء الهيكل عبر ٢٠ عاماً. ثم عاد الفوج الثاني بعد ٨٠ عاما من الفوج الأول بقيادة عزرا وأخيراً الفوج الثالث مع نحميا بعد ١٣ عاماً أخرى.

والجدول الزمني المرسوم في الصفحة المقابلة يوضح الأحداث والشخصيات في تلك الفترة، العمود الأيمن منه يشير إلى الأحداث التي حدثت في بابل وفارس والعمود الأيسر لما حدث في إسرائيل.

وأحداث قصة أستير وقعت في مملكة فارس بين عودة الفوجين الأول والثاني، حيث أن أعداداً كبيرة من اليهود الذين استتب لهم المقام في بابل كان لهم وظائف بعضها مرموق. وبعضهم كان له أملاك وحقول. مما جعلهم يفضلون البقاء في أرض السبي وعدم

سبي بابل على يد نبوخذنصر

٥٨٦ ق م

نبوات حزقيال ودانيال

كورش الفارسي يسمح بعودة الفوج الأول مع زربابل

٥٣٦ ق م

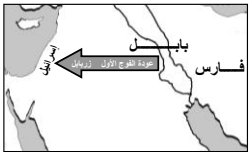

نبوات حجي وزكريا

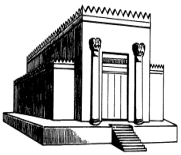

إتمام بناء الهيكل

٥١٦ ق م

أستير تصبح ملكة

٤٧٩ ق م

عودة الفوج الثاني بقيادة عزرا

٤٥٨ ق م

عودة الفوج الثالث بقيادة نحميا

٤٤٥ ق م

بنـــــاء أســـوار أورشليم

نبوة ملاخي

الرجوع إلى إسرائيل للسكن في مدن متهدمة محروقة بلا أسوار .... بكل ما يمثله هذا من شعور بعدم الأمان ... كما أن العائدين سيكون عليهم إعادة بناء الهيكل الذي هدمه نبوخذنصر.وقد حاولنا في هذا العمل القصصي أن نلتزم بكل الحقائق والتفاصيل التي وردت في سفر أستير (بما فيه تتمة السفر التي وردت في الأسفار القانونية الثانية) مع إضافة بعض التفاصيل اللازمة لاستكمال الشكل الروائي- مع التنويه عنها في الهوامش- حتى لا يخلط القارئ بين خيال المؤلف والحقائق الكتابية.

أدعوك عزيزي القارئ إلى جولة في أعماق التاريخ ...

هذا التاريخ الذي يعيد نفسه مراراً وتكراراً.

ومن خلال مثل هذه القصص نتعايش مع عمل الله مع شعبه.

فنجده دوماً كما هو لا يتغير.... أمساً واليوم وإلى الأبد.

هذا ويسعدني عزيزي القارئ أن تشاركني رأيك ونقدك من خلال رسالة على عنواني التالي: ***dr.hanysobhy@yahoo.com***

هاني صبحي

أستير ... الطفلة الجميلة اليتيمة

سالت الدموع غزيرةً من عيني الطفلة الصغيرة وهي تواري جسد أمها في التراب. وكانت الطفلة الجميلة ذات الشعر المتهدل على الكتفين قد اختبرت مرارة الحزن قبلاً عندما دفنت أباها "أبيحائل" قبل عدة شهور، ولكنها فيما سبق كانت تدفن رأسها الصغير في حضن أمها وتستكين للمسات أصابعها التي تربت على خصلات شعرها فتبث فيها شعوراً بالاطمئنان .... ولكن الآن ... أين تجد ذاك الحنان؟ أين تجد من يسمعها ويعطيها الأمان؟ فقد ولدت في أرض السبي بعيداً عن موطنها، وعاشت طفولتها وسط شعب غريب .... يتكلم لغة غير تلك التي تتعلمها في بيتها، وحتى عندما سمح كورش ملك فارس بعودة اليهود إلى إسرائيل فإن أسرتها أحجمت عن العودة وآثرت البقاء نظراً للخراب الذي أصاب بلادهم وكانت تجد في حنان أبويها واحتضانهما ما يعوضها - ولو جزئياً - عن تلك الغربة الإجبارية.

وتعلقت عينا الطفلة بابن عمها مردخاي .Mordecai ذلك الرجل التقي الذي كان دوماً أباً ثانياً لها، ولاسيما في الفترة التي أعقبت وفاة والدها. وبالتالي كان قراره بتبنيها قراراً طبيعياً ومتوقعاً، خاصة أن زوجته مريم كانت تحبها حباً صادقاً، وتجد في تبنيها

خير تعويض عن عقمها الذي حرمها من نعمة البنوة*.

وكانت الأسابيع الأولى حزينة دامعة، ولكن تعزيات السماء انسكبت بغنى على تلك الأسرة التقية، وتكفلت يد الله الحانية بتعضيد مردخاي وزوجته، فقاما بمهمتهما خير قيام.

ودارت عجلة الحياة وصارت الطفلة الصغيرة فتاة حسناء، بهية الطلعة كالبدر ليلة اكتماله، كالزهرة اليانعة تشع برائحتها الذكية على كل من يتعامل معها، فتأسره بالنعمة الغنية التي تفيض منها فلا تخطئها عين ولا يختلف بشأنها اثنان.

وكان مردخاي يعمل حارساً أمام أحد أبواب قصر الملك أحشويروش* Ahasuerus ، وهي تلك الوظيفة التي كان كثيرون يحسدونه عليها دون أن يدروا أنها كانت تحرمه من حلمه بالعودة إلى أورشليم مثل من سبقوه قبلاً.

---

* لم يذكر الكتاب القدس شيئاً عن زوجة مردخاي والتي تُسمَّى مريم في هذه القصة والتي افترضنا عقمها لأن الكتاب لم يذكر أن مردخاي كان له أبناء. فهي شخصية من وحي خيال المؤلف وليست شخصية حقيقية.

* أحشويروش كلمة فارسية تعني رئيس الحكام، فهي ليست اسم الحاكم بل لقبه، مثلما كان حاكم مصر يدعي فرعون. وحاكم الشام يدعى أبيمالك. ومن دراسة التاريخ نعرف أن الاسم الحقيقي للحاكم في ذلك الوقت فهو "زركسيس"

حفل أسطوري في القصر الإمبراطوري

كان موعد عودة مردخاي من عمله فرصة للأسرة الصغيرة أن تجتمع حول مائدة الطعام، فيشكرون الله في صلاة قصيرة ثم يتبادلون أطراف الحديث.

مردخاي: أشكر الله كثيراً على معونته .. فقد كان يومي حافلاً استعداداً للحفل الضخم الذي يستعد له القصر على قدم وساق.

مريم: لقد حكيت لي عنه قبلاً، ولكني نسيت، ما مناسبة ذلك الحفل؟

مردخاي: إنه يستعد لحرب جديدة مع الإغريق* (اليونان) ولذا فقد أرسل يستدعي الولاة والعظماء من كل أنحاء المملكة.

أستير: وهل سيجمع كل هؤلاء من ١٢٧ دولة من الهند شرقاً إلى الحبشة غرباً في حفل واحد؟ ... وكيف يستطيع أن يضع خطة الحرب في هذا الزحام؟

مردخاي: ليس حفلاً واحداً، بل حفلين ... الأول سيستمر لمدة ستة أشهر بالتمام والكمال تتعاقب فيه الأفواج من مختلف الأنحاء، أما الثاني فيحضره قليل من القادة بالإضافة إلى شعب مدينة شوشن Shushan عاصمة الإمبراطورية الفارسية ويستمر أسبوعاً واحداً.

مريم: ولماذا هذه المبالغة في كل شيء؟

---

* الحرب مع الإغريق نعرفها من دراسة التاريخ ولكنها لم تُذكر في الكتاب المقدس.

مردخاي: هذا هو طبع أباطرة فارس، إنهم مبالغون في كل الأمور، ثم أنه يحكم معظم أرجاء العالم وهو شاب، والذهب عنده بغير حساب والفضة عنده كالتراب.

أستير: أتعني أنك ستظل في حالة طوارئ طوال تلك الشهور؟

مردخاي: بالطبع، أنا وكل من يعمل في خدمة القصر.

مريم: إن الإغريق لهم حضارة عظمى وقوة عسكرية لا يُستهان بها، فلماذا يصطدم بهم أحشويروش؟ ولماذا لا يهادنهم ويعيش كلانا في سلام بعيداً عن الحروب وويلاتها؟

مردخاي: معك كل الحق، ولكنه كما تعلمين حديث العهد بالحكم، فلم يمضِ عليه سوى ثلاث سنوات فقط على العرش. ولذا فهو يريد أن يضع لنفسه تاريخاً وأمجاداً عسكرية ويوسع حدود الإمبراطورية بغزو اليونان فيصبح بطلا قومياً في أعين الشعب.

مريم: وماذا عن احتمال الهزيمة؟ أليس وارداً؟

مردخاي: وارد بشدة، فالإغريق قوة عظمى، ولكن في مثل تلك الحروب، فإن الطرفين يخسران الكثير من الجنود والعتاد. ثم يعود كل منهما لشعبه ليَدَّعِي أنه أتى بالنصر المبين!

أستير: لي رأي يا عمي مردخاي .....

مردخاي: أفضل أن تنادِيني "يا أبي" فأنت بالحق ابنتي ولست مجرد ابنة عم.

أستير: حسناً يا أبي وأنا أفضل أن تناديني باسمي العبري هَدَسَّة Hadassah (أي شجرة الآس الجميلة) كما كانت أمي تفعل دوماً، فهو يشعرني بالانتماء أكثر من اسمي الفارسي أستير (أي كوكب أو نجمة).

مردخاي: يسرني أن أدعوك بالاسم المحبب لك ... والآن فماذا كنت تقترحين يا هدسة؟

أستير: لماذا لا ننأى بأنفسنا عن تلك الصراعات؟ إن بعض الأسر اليهودية من سكان شوشن يحزمون متاعهم ويستعدون للعودة إلى أورشليم وكم أتمنى أن نصحبهم.

مردخاي: أحسنوا صنعاً، فالعودة لأورشليم هي حلم يداعب خيال كل يهودي ويداعب خيالي بالطبع.

أستير: ولماذا لا نعود مثلهم؟ كم أتوق لذلك بدلاً من هذه الغربة.

مردخاي: الأمر ليس سهلاً، فالقانون يعتبر وظيفتي مثل وظيفة الجندي الذي لا يحق له الاستقالة. ومن جهة أخرى فإن الأمن في أورشليم منعدم، والأسوار مهدَّمة والأبواب محروقة، وبناء الأسوار حلم يبدو مستحيلاً ....

مريم: وكيف يعيش من عادوا مع زَرُبابل منذ خمسين عاماً؟

مردخاي: إن ظروفهم في غاية الصعوبة، ويعانون من هجمات القبائل عليهم.

مريم: ولكن يكفي أنهم يعيشون في كَنَفِ الهيكل.

مردخاي: إنها بركة كبيرة أن يكونوا في حضن الهيكل، ولكني مُلزَم أن أبقى في وظيفتي، لستُ مخيراً. لا أستطيع أن أستقيل أو أهرب.

أستير: وهل سنقضي بقية عمرنا في شوشن؟ ألن نعود أبداً؟

مردخاي: إني مثلكم، ولدتُ في أرض السبي ولكني أحلم أن أدفَن في أرض أجدادي. وربما نعود عقب التقاعد، وهو أمر غير بعيد لمن هم في مثل وظيفتي.

وعقب صلاة حمدٍ على نعمة الله وعطاياه ينفرط عِقد المجلس العائلي، وكل منهم يرسم في خياله صورة للهيكل الذي اكتمل بناؤه منذ ٣٠ عاماً. أي بعد ٧٠ عاماً من هدمه على يد نبوخذنصر.

ورغم أن الهيكل الجديد لم يكن سوى بناء متواضع إذا ما قورن بهيكل سليمان. ورغم أنه كان أنه يخلو من أعظم محتوياته وهو تابوت العهد* الذي أخفاه إرميا النبي قبل هدم الهيكل، ولكن رغم كل ذلك فإن الهيكل الجديد البسيط أصبح أملاً وملاذاً لكل اليهود المشتتين منذ السبي.

وفي حجرتهما فاتحت مريم زوجها بما يجول في ذهنها.

مريم: هل لاحظت شوق أستير إلى أورشليم يا مردخاي.

مردخاي: بالطبع، وأدرك أيضاً دوافعه ... فبعضها روحي وبعضها الآخر اجتماعي ..... أو بالأحرى عاطفي .

* كان تابوت العهد يحوي لوحي العهد المكتوب عليهما الوصايا العشر بإصبع الله وأيضا قط المن وعصا هارون. وقصة إخفائه مذكورة في سفر (٢ مكابيين ٢: ١-٧)

مريم: كم أنت ذكي ولماح! فمعظم شباب الحي يتوددون إليها ويسعون لخطب ودها، فهي بلا شك من أجمل فتيات الحي.

مردخاي: أعلم ذلك ولكن يستحيل أن أتركها تتزوج من رجل أممي وثني غير مختتن.

مريم: وهي أيضاً تأبى ذلك بشدة، وهذا ما يزيد من تعجلها العودة إلى أورشليم.

مردخاي: لا أخفيكِ سراً أنني أحمل همَّ ذلك اليوم الذي يأتي فيه عريس يطلب يدها وينتزعها من حضني.

مريم: وأنا أيضاً لا أدري ... هل ستكون فرحتي بزواجها أكبر؟ أم لوعتي لحرماني من صحبتها؟

مردخاي: يبدو أننا سنكون حموين في غاية الصعوبة لعريس المستقبل الذي سيخطفها من أحضاننا!!

ومع بدء الحفلة الأولى كانت مريم وأستير تنتظران عودة مردخاي كل بضعة أيام ليحكي لهما عن مظاهر البذخ الأسطوري الذي تحفل به هذه الحفلات. فالطعام على كل شكل ولون، والشراب متاح للجميع بغير حساب. وتذهب أفواج ويأتي غيرها والبذخ يزيد يوماً عن يوم، وأهل شوشن ينتظرون دورهم في الأسبوع الأخير بعد انتهاء الستة أشهر المخصصة لباقي أرجاء الإمبراطورية.

وأخيراً كان نصيبهم في الوليمة الأخيرة في حدائق القصر ففاقت كل ما سبق ..... فالخيام مقامة على أعمدة من الرخام الفاخر وأرضية من المرمر النادر. والمقاعد والأرائك يختلط فيها الذهب مع الفضة، أما الأكواب وكئوس الخمر فهي من الذهب النقي، والأواني والأطباق من الفضة التي تحوي ما لذ وطاب من طعام. فهذا طبق للحم النعام مزين بالريش الناعم الطويل. وتلك صينية للطواويس مزينة بالريش المزركش،* أما الخمور المُعتـّقة فهي على كل شكل ولون. ولكل مدعو أن يشرب ما شاء ... وكانت والصورة في وليمة النساء التي أقامتها الملكة وَشتي Vashti في قصرها لا تختلف كثيراً عن تلك التي في قصر أحشويروش.

---

* ليس من الخطأ أن يكون المسيحي ثرياً أو مليونير أو حتى ملياردير ... فالله يمنحنا كل شيء بغنى للتمتع (١تي٦:١٧) ولكن الخطأ كل الخطأ هو في مثل هذا السفه الذي يجعلنا نسيء استعمال الوزنات التي وهبها لنا القدير فنبددها بغير حكمة بينما حولنا ملايين من البشر - مثل لعازر- يتضورون جوعاً وينتظرون أن تأتي الكلاب لتلحس قروحهم.

مثل هؤلاء الأغنياء ينذرهم يعقوب الرسول قائلاً:

"هَلُمَّ الآنَ أَيُّهَا الأَغْنِيَاءُ، ابْكُوا مُوَلْوِلِينَ عَلَى شَقَاوَتِكُمُ الْقَادِمَةِ. غِنَاكُمْ قَدْ تَهَرَّأَ، وَثِيَابُكُمْ قَدْ أَكَلَهَا الْعُثُّ. ذَهَبُكُمْ وَفِضَّتُكُمْ قَدْ صَدِئَا، وَصَدَأُهُمَا يَكُونُ شَهَادَةً عَلَيْكُمْ، وَيَأْكُلُ لُحُومَكُمْ كَنَارٍ! قَدْ كَنَزْتُمْ فِي الأَيَّامِ الأَخِيرَةِ. هُوَذَا أُجْرَةُ الْفَعَلَةِ الَّذِينَ حَصَدُوا حُقُولَكُمُ، الْمَبْخُوسَةُ مِنْكُمْ تَصْرُخُ، وَصِيَاحُ الْحَصَّادِينَ قَدْ دَخَلَ إِلَى أُذُنَيْ رَبِّ الْجُنُودِ. قَدْ تَرَفَّهْتُمْ عَلَى الأَرْضِ، وَتَنَعَّمْتُمْ وَرَبَّيْتُمْ قُلُوبَكُمْ، كَمَا فِي يَوْمِ الذَّبْحِ. حَكَمْتُمْ عَلَى الْبَارِّ. قَتَلْتُمُوهُ. لاَ يُقَاوِمُكُمْ!" (يع٥: ١-٦).

الخمر مستهزئة (أم٢٠: ١)

فلما كان اليوم السابع والأخير للوليمة كانت الخمر قد دارت برؤوس الرجال فترنح من كانوا عقلاء وسَكَر من كانوا حكماء.
وللأسف كان الملك أحد هؤلاء السكارى ... فأخذ يتفاخر بجمال زوجته ويعدد مفاتنها، فلما اتهمه بعض السكارى بالمبالغة، قرر أن يرسل في استدعائها ليتحدى المتشككين في صدق أقواله!!
ورغم أن البذخ في وليمة النساء لم يكن أقل شأناً، إلا أن قلة الخمور هناك جعلتهن أكثر حكمة وأرجح عقلاً!!

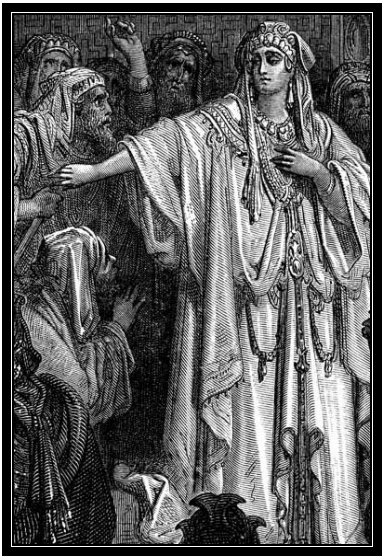

الملكة وشتي ترفض أمر الملك

ووصلهن الأمر الملكي بوجوب أن تذهب الملكة وشتي إلى وليمة الرجال وهي في كامل هيئتها وزينتها ليتغزل في جمالها الحاضرون!! فما كان منها إلا أن رفضت بإباء وشمم، وتلعثم رسل الملك وهم يحذرون الملكة من العواقب الوخيمة التي تنتظرها إن أصرت على موقفها.

إلا أن الملكة كانت تحترم أصول اللياقة والخلق القويم، ففضلت مواجهة مصيرها بشرف عن مجاراة الملك في الغي والضلال. ..... وعاد الرسل م وهم ينمقون الكلمات التي تنقل رسالة الملكة الغاضبة. ورغم مساعيهم الحميدة، إلا أن رفضها كان مثل دلو من الماء البارد انسكب على رأس الملك فأفسد الحفل الفخيم.

واغتاظ الملك جداً واحمرَّ وجهه شاعراً أن هيبته قد تمرغت في التراب وهو يحكم ١٢٧ دولة وغير قادر أن يسيطر على زوجته!

والتفت الملك إلى مستشاريه يسألهم عن الوضع القانوني لملكة فارس عندما تعصى أوامر زوجها؟

وكان مستشاره القانوني أكثر غيظاً من الملك نفسه، فأسهب في شرح جريمتها، وقال له إن ما فعلته الملكة ليس إهانة للملك فقط، بل هو لطمة لكل رجل يشعر أنه سيد قراره وأن كلمته في منزله تسود دون مناقشة ..... وأن العقاب القانوني هو حرمانها من منصبها الملكي وأن يُكتب هذا المرسوم ويُنشَر في جميع أنحاء المملكة بكل اللغات، وهو ما يجعله قراراً ملكياً لا رجعة فيه*. وكان هذا العقاب القانوني مخرجاً يحفظ للملك - بل ولكل رجل - ماء وجهه...

---

* كانت شريعة فارس تقضي أن المرسوم الملكي لا يستطيع أحد أن يلغيه ولا حتى الملك نفسه!! .. وكان هذا سبب ورطة كبيرة للملك داريوس مع دانيال النبي كما نقرأ في (دا٦) كما كان سبباً في تورط أحشويروش نفسه كما سنرى فيما بعد.

ودارت في كل منزل مناقشات متشعبة عن صحة رأي كل من الزوجين. فمعظم النساء ينتصرون للملكة التي احترمت كرامتها وضحَّت بالتاج من أجل الأخلاق والأصول،

ومعظم الرجال يشعرون بشماتة الثأر من الملكة المتمردة.

والعقلاء من الطرفين يؤكدون أن الخمر التي دارت برؤوس الملك وحاشيته عي السبب في تلك الورطة*.

---

* يذكر الكتاب المقدس حادثين آخرين يحكيان عما سببته الخمور من كوارث في حفلات ملكية مشابهة لهذه القصة .... أولهما قبل هذه القصة بعشرات السنين حين أقام بيلشاصر – حفيد نبوخذنصر- وليمة صاخبة فشرب وسكر وأرسل يطلب الأواني المقدسة التي لهيكل سليمان، ليشرب فيها خمراً!!

واستاء الله بشدة من هذا الاستهزاء فأرسل يد ملاك تكتب على الحائط ما معناه "أحصى الله ملكوتك وأنهاه فقد وُزنت بالموازين فوُجدت ناقصا ومملكتك تقسم وتعطى لمملكة فارسَ" ..... وبالفعل اجتاح الفرس مملكة بابل في ذلك اليوم وقتلوا الملك المستهزئ وسمحوا لليهود بالعودة إلى بلادهم بأمر من ملكهم كورش.

أما القصة الأخرى الشهيرة في العهد الجديد فهي التي سكر فيها هيرودس الملك أثناء احتفاله بعيد ميلاده وأعجبه رقص سالومي ابنة زوجته فوعدها بتحقيق أي طلبة لها. فطلبت رأس المعمدان - بناء على مشورة أمها- وهكذا أطيح برأس أعظم مواليد النساء نتيجة الخمر والسكر!! ... لذا قال سليمان الحكيم في سفر الأمثال:

اَلْخَمْرُ مُسْتَهْزِئَةٌ. الْمُسْكِرُ عَجَّاجٌ، وَمَنْ يَتَرَنَّحُ بِهِمَا فَلَيْسَ بِحَكِيمٍ. (أم٢٠: ١)

لاَ تَكُنْ بَيْنَ شِرِّيبِي الْخَمْرِ، بَيْنَ الْمُتْلِفِينَ أَجْسَادَهُمْ، لأَنَّ السِّكِّيرَ وَالْمُسْرِفَ يفْتَقِرَانِ. لِمَنِ الْوَيْلُ؟ لِمَنِ الشَّقَاوَةُ؟ لِمَنِ الْمُخَاصَمَاتُ؟ لِمَنِ الْكَرْبُ؟ لِمَنِ الْجُرُوحُ بِلاَ سَبَبٍ؟ لِمَنِ ازْمِهْرَارُ الْعَيْنَيْنِ؟ لِلَّذِينَ يُدْمِنُونَ الْخَمْرَ، الَّذِينَ يَدْخُلُونَ فِي طَلَبِ الشَّرَابِ الْمَمْزُوجِ. لاَ تَنْظُرْ إِلَى الْخَمْرِ إِذَا احْمَرَّتْ حِينَ تُظْهِرُ حِبَابَهَا فِي الْكَأْسِ وَسَاغَتْ مُرَقْرِقَةً. فِي الآخِرِ تَلْسَعُ كَالْحَيَّةِ وَتَلْدَغُ كَالأُفْعُوانِ. (من أم٢٣)

البحث عن ملكة!

وبعد أيام ذهبت السَكْرة وجاءت الفكرة، وشعر الملك أنه يفتقد الملكة المحبوبة.

فرغم كثرة زيجاته إلا أن وشتي كان لها مكانة خاصة لا تملأها كل الأخريات .... وهو لا يستطيع – بحكم الشريعة- ان يتراجع عن قراره، وشعرت الحاشية بالمحنة التي يمر بها الملك فنصحوه بالحكمة الشهيرة: "وداوها بالتي كانت هي الداء" .... فإذا كانت امرأة أصابته بالداء، فحُب امرأة أخرى سيعطيه الشفاء!

وحتى تكون الملكة القادمة على المستوى اللائق، فيجب أن ينتشر وكلاء الملك في طول البلاد وعرضها لينتقوا أجمل العذارى ليختار منهن من تخلف وشتي. وليذهب الملك إلى الحرب مع اليونان، فمتى عاد يجد الحسناوات في انتظاره ليختار منهن.

وسرى الخبر في البلاد سريان النار في الهشيم. ووقفت كل فتاة أمام المرآة تسألها هل سألفت نظر أحد وكلاء الملك؟ وإذا تحقق الحلم الأول فهل يتحقق الحلم الأعظم وأكون أنا صاحبة الشرف الرفيع ويختارني الملك؟ وتنعقد مجالس الجيران فتحكي كل أسرة عن أمانيها بنوال ذلك الشرف الرفيع أن يصبحوا أنسباءً للملك شخصيا.

ولكن فتاة واحدة كسرت القاعدة ووقفت أمام المرآة تناجي نفسها:

لأول مرة أشعر أن جمالي عبءٌ أتمنى التخلص منه...

هل تجرني تلك العيون الجميلة إلى الارتباط بزوج وثني؟

هل يقودني القوام الممشوق إلى قصر لا أريد الذهاب إليه؟
هل أندم يوماً على شَعري الذهبي الذي يحسدوني عليه؟
ولم تكن تلك المشاعر خافية على مردخاي ومريم، بل وكانت نفس الهواجس تنتابهما. ولكن الثلاثة يتبادلون النظرات الصامتة ويخفي كل منهم مخاوفه عن الآخر.
وقبيل شروق الشمس بقليل استيقظ مردخاي ليجد أستير مستيقظة فاختلى بها وصارحها:

مردخاي: فيم استيقاظك قبل موعدك؟
أستير: لقد هجر النوم أجفاني فقمت لأطرد أحزاني.
مردخاي: أعلم يا بنيتي ما يخالج نفسك فافتحي قلبك لأبيك.
أستير: لم أكن أتخيل يا أبي أن يأتي اليوم الذي أجد نفسي مُرغمة على الارتباط برجل وثني ... حتى إذا كان ملك البلاد وسيد العباد.
مردخاي: ولا أنا يا ابنتي، فقد تمنيت دوماً - وما زلت أصلي للرب القدير- أن تتزوجي من يهودي تقي، وأن يهبك القدير نسلاً صالحاً من الأبرار الأتقياء.
أستير: يبدو أن هذه الأماني ستتبدد يا أبي، فوكلاء الملك يفتشون المدينة شارعاً بشارع، وحتما سيأخذونني.
مردخاي: ستختبئين منهم، وقد يعمي الله عيونهم عنك.
أستير: يسمع الله منك يا أبي، فالهواجس سلبت النوم من عيني،

إن الملك الجبار العاتي لا يسمح لمخلوق أن يقابله إلا إذا استدعاه هو .... ولا حتى زوجته!! ..... أما الفتاة التي تدخل إليه ولا تصادف هواه فتقضي بقية عمرها في بيت النساء، لا هي زوجة حقيقية ولا هي مُطلقة السراح فلا تعيش مع أسرتها ولا تتزوج بآخر. فهي مجرد زوجة لليلة واحدة!!

مردخاي: اهدئي يا جميلتي واطردي تلك الهواجس عنك.

أستير: أنت تعلم أنه أمر محتمل، بل ربما وشيك الحدوث.

مردخاي: حتى إن حدث، فالله معك من المهد إلى اللحد، ولكن إن حدث فإياكِ أن تخبري عن جنسك أو عني.

أستير: وبم أجيب إذا سألوني؟

مردخاي: قولي أنك يتيمة الأبوين ... وتلك حقيقة لا كذب.

أستير: ولماذا أخفي صلة القرابة بيننا؟

مردخاي: أنت تعلمين طبيعة عملي المتواضع حارساً لإحدى بوابات القصر الملكي، ولست أنا ذلك الرجل الذي يطمع في ترقية على حساب العلاقة بابنة عمه إذا صارت زوجة للملك.

أستير: لا تذكر هذا الاحتمال، فإني أرتعب هلعاً من حدوثه.

مردخاي: لا تخافي يا هِدَسَّة وتعالي نسكب تضرعاتنا أمام إلهنا.

أستير: أحسنت يا أبي فأنا لا أجد راحتي إلا بترنيم المزامير.

وفي تلك اللحظات كانت مريم قد أخذت مكانها بينهما، وسرعان ما كانت القيثارة بين يدي أستير، وأوتارها تتسابق مع الحناجر لتمجيد الرب وتقديس اسمه وحمده.

ومع نهاية التسبيح كان سلام الله الذي يفوق كل عقل قد تغلغل في نفوس الأسرة الصغيرة. ليس لثقتهم أنها لن تؤخذ إلى القصر، بل ليقينهم أن كل الأشياء ستعمل معاً للخير..... لأنهم يحبون الله. .... ومضى مردخاي إلى عمله، وغلب النعاس عيون أستير فنامت في فراشها ساعات قليلة قبل أن تصحو على صوت الخيول التي تجر عربة ملكية وصوت الأطفال والجيران يتصايحون مهللين لقدومها. وفي الحال ذهبت أستير لتختبئ في بدروم المنزل في ذلك المخزن القديم بين أكوام التبن، وأرهفت أذنيها وهي تشعر أن وكلاء الملك لا بد أن يجدوها إذا أنصتوا لخفقات قلبها التي تعلو على صوت ضوضاء الحي كله!!

ومن مخبئها الضيق استطاعت أن تميز صوت جارتها ووكيل الملك يرفض أخذها لعدم اقتناعه بجمالها، وها هو يسأل عن جميلات الحي فيتطوع أهل الخير بإرشاده إلى أستير جميلة الجميلات ومقصد الشباب، وتنكمش أستير في مخبئها ويعلو صوت قلبها وتتسارع أنفاسها وهي تسمع صرير الباب ينفتح بعد طرقات الرجال وحوارهم مع مريم واقتحام المنزل وتفتيشه، وما هي إلا

دقائق حتى كانت الفتاة البريئة قد وقعت بين يدي الرجال وقوع الغزال بين مخالب السباع. فاقتادوها رغم دموعها إلى بيت الملك مع كثيرات مثلها، ليتولَّى أحد خصيانه ويُدعى هيجاي (Hegai) اختيار أفضل سبع فتيات لإعدادهن ليختار الملك بينهن .... وبالطبع كانت أستير إحداهن.

ودخلت المسكينة إلى القفص الذهبي حيث وضعوا تحت تصرفها الجواري والخدم والطعام الفاخر والملابس والحلي ولكن كل هذا العز لم يكن ليعوضها عن يوم واحد في منزل مردخاي المتواضع.

وتساءلت الفتاة عن موعد اللقاء المرتقب مع الملك أحشويروش فابتسم هيجاي لسذاجة تلك البريئة الصغيرة فأجابها بصوت هادئ:

هيجاي: إن الملك يقود الجيش في الحرب وعودته مرهونة بانتهاء المعارك وتحقيق النصر، فهل مللتِ الإقامة معنا سريعاً؟ أم أننا قد قصَّرنا في استضافتك؟

أستير: كلا البتة، فأنا لا أجد منكم إلا أفضل معاملة ولكني أذوب شوقاً إلى أسرتي، منزلي وسريري، غرفتي وجيراني.

هيجاي: حسناً سننفق الوقت في تعلُّم الآداب الملكية، فإذا ما اقتربت عودة سمو الملك ستتعطرين وتتزينين حتى يحق لك الدخول إلى حضرة جلالته.

أستير: بمجرد عودته سأتعطر في لحظات وأتزين في دقائق؟

هيجاي: ماذا تقولين؟ إن التعطر وحده يستغرق سنة كاملة، نصفها الأول بزيت المر ونصفها الآخر بالأطياب والأدهان. (أس٢:١٢)

أستير: أنت رجل طيب يا سيدي وأنا أحترمك، ولكنك تمزح في موضع الجد ولا تدرك أن هذا الموضوع حيوي وخطير، والهزل فيه يجرحني ويرعبني.

هيجاي: أنت بالذات لك معزَّة خاصة أيتها البريئة الطاهرة وكل من يتعامل معك يشعر أن بك مزايا خفية تظهر في كلماتك وتصرفاتك، بل حتى في نظراتك! ولكن صدقيني أن هذه هي التقاليد الملكية ... سنة كاملة للتعطر أولاً!!

أستير: ١٢ شهراً للتعطر قبل مقابلة إنسان مثلي ومثلك ؟؟

هيجاي: نعم هو إنسان، ولكن ليس مثلي ولا مثلك. فهو يحكم معظم المسكونة. ثم أنه ليس مجرد إنسان بل هو ظل الإله على الأرض.

أستير: تمنيتُ الارتباط بشاب من بني جنسي مثل كل الفتيات.

هيجاي: وما هو جنسك؟ ومن أي شعب أنتِ؟

أستير: أهذا يغير من الأمر شيئاً؟ إني لست إلا إحدى رعاياه.

هيجاي: ولكنك من أفضل رعاياه، وأشعر أنك ستصبحين الملكة.

قال هيجاي هذه الكلمات وهو يشعر أنه يُمَنِّيها بأعظم ما تتمناه فتاة، ولا يدري أن ارتباطها برجل وثني هو كابوس حقيقي يُطَيِّر النوم من عينيها.

ومضت أسابيع وشهور ومردخاي يحرس بوابة القصر ويبذل قصارى جهده أن يعرف أخبار ابنته أولاً بأول من العاملين بالقصر ويطمئن عليها .... ومضت أربعة أعوام قبل أن يعود الملك من الحرب مهزوماً، ولكنه يدَّعي النصر أمام شعبه !! كعادة معظم الملوك ..... إن لم يكن كلهم !!

وآن أوان دخول الفتيات إلى الملك، فكانت الفتاة متى دُعيت تترك بيت العذارى وتدخل إلى جناح الزينة والمكياج والإكسسوار فتمضي يومها تصفف شعرها وتختار ما يروق لها من الحلي والثياب، لعلها تحظى برضا السمو الملكي الرفيع، ولكن الملك عادة ما يزهد الفتاة بعد أول ليلة. فتعود إلى بيت النساء لتمضي باقي عمرها هناك .... لعل وعسى أن يتذكرها الملك يوماً ما فيستدعيها بالاسم، ولكن هذه الأمنية عادة ما تذهب أدراج الرياح. لتمضي بها الأيام فتذبل وتشيخ في قفص ذهبي ... لا هي زوجة ولا هي عذراء!! لا هي سجينة تعرف موعد الإفراج ولا هي حرة تتحرك حيث تشاء !!

أستير ملكة

وأخيراً جاء الدور على أستير فتعففت أن تتزين مثل سائر الفتيات، وهجرت المرآة تاركة هيجاي يختار لها ما شاء، ودخلت إلى الملك في أبسط صورة*.

أستير..... جمال النعمة !

وبعد عدة دقائق وجد الملك نفسه مسبياً بنوع فريد من الجمال لم يختبره قبلاً. وسحر خاص، جعله مسلوب الذهن والإرادة أمام تلك الصغيرة التي يشع السحر من عينيها ويفيض من شفتيها، ولكن الرجل لم يستطع أن يضع تعريفاً لهذا السحر الفريد ولم يعرف أن اسمه الحقيقي **"نعمة الله"** تلك النعمة التي جعلت كل من يقابل أستير يلمس ويرى ويسمع ويشم ويتذوق هذا السحر الرائع لديها.

---

*وَلاَ تَكُنْ زِينَتُكُنَّ الزِّينَةَ الْخَارِجِيَّةَ، مِنْ ضَفْرِ الشَّعْرِ وَالتَّحَلِّي بِالذَّهَبِ وَلِبْسِ الثِّيَابِ، بَلْ إِنْسَانَ الْقَلْبِ الْخَفِيَّ فِي الْعَدِيمَةِ الْفَسَادِ، زِينَةَ الرُّوحِ الْوَدِيعِ الْهَادِئِ، الَّذِي هُوَ قُدَّامَ اللهِ كَثِيرُ الثَّمَنِ (١بط٣: ٣-٤).

وبعد ذلك اللقاء لم يكن القرار محيراً للملك، فأعلن تتويج أستير ملكة بدلاً من وشتي وجعل هذا اليوم عطلة في كل الإمبراطورية وأقام وليمة رائعة تتناسب مع سعادته بالعثور على العروس التي فاقت أحلى أحلامه. فتوجها وتزوجها.

أحشويرش يتوج أستير ملكة على إمبراطورية فارس

وكان مردخاي - ذلك البواب المرابط على باب القصر- طوال تلك الفترة يتواصل معها من خلال الرسائل المتبادلة التي ينقلها الخدم، فهي حتى بعدما أصبحت ملكة لم تنسَ أباها الذي ربَّاها وما زالت تدين له بالطاعة وتستشيره كلما لزم.

فلما عرف باختيارها ملكة للبلاد وبقرب عمل وليمة احتفالاً بها انتابته مشاعر متضاربة. فهو يعلم أن هذه الفرصة قد تكون الأخيرة التي يرى فيها ابنته وقُرَّة عينه، وفي نفس الوقت فإن كلمة واحدة منها كفيلة أن تنقله إلى موقع آخر بالقصر، موقع يليق بأقارب الملكة. ولكنه تعفف عن ذكر علاقته بها، وحافظ على الاتفاق الذي أبرمه معها فلم يصرح بشيء. بل واصل عمله المتواضع بكل همة وأمانة مشاركاً مع الطاقم المكلف بتقديم الأكل والشرب للمدعوين في الوليمة. حتى تقع عيناه على الملكة المتوجة، فتفيض الدموع الصامتة من كليهما. فيفسرها الحاضرون تفسيرات شتَّى، لا يقترب أي منها للحقيقة مطلقاً....

ويا لها من قوة جبارة تلك التي منعته من تجاهل كل من حوله ليعتصر ابنته في حضنه الأبوي*، ولكنه غالب نفسه حتى غلبها، ومضت الليلة بسلام. فعاد إلى منزله البسيط وهو يجتر ذكريات تلك الليلة الفريدة وتنهمر دموعه، فتمسحها مريم بمنديلها المبلل بدموعها هي الأخرى.... ويظل حتى الفجر يروي لمريم كل تفاصيل الفرح الأسطوري محاولاً -على قدر استطاعته- أن يجيب عن أسئلتها وعن كل التفاصيل التي لا تراها سوى عين المرأة !!

* لم يذكر الوحي شيئاً عن حضور مردخاي حفل الزواج. وهذا الجزء من وحي خيال الكاتب دون سند كتابي.

مردخاي ينقذ حياة الملك

ومـن ناحيـة أخـرى تضـاربت مشـاعر الشـعب تجـاه الملـك أحشويروش، فالبعض يصدقون انتصاراته الوهمية والبعض تصلهم أنباء أخرى عبر البحار فينقلبون ضده ويبحثون عمَّن يمكن أن يخلفه، وفي تلك الأثناء سطع نجم أحد مساعدي الملك ويُدعى هامان (Haman)، وكان رجلاً انتهازياً وصولياً يبتسم في وجه خصومه وهو يعد لطعنهم من الخلف، وقد حاز ثقة الملك فرقَّاه ورفعه، ولكن هامان كان يتطلع لما هو أكبر من ذلك ... كانت عينه على العرش ويخطط لاغتيال الملك، من خلال تجنيد بعض رجال القصر، (تتمة أستير ٦:١٢) وحتى يظل في مأمن من كشف أمره فقد كان يرسل لهم الأوامر والخطط من خلال وسطاء ومكاتبات تجعله بعيداً عن أية مساءلة في حالة افتضاح المؤامرة.

وأثناء التخطيط لقتل الملك استطاع مردخاي بحكم عمله أن يدرك أبعاد المؤامرة، وبغض النظر عن كون هذا الأمر خارج اختصاصه إلا أنه شعر بحتمية الكشف عنها. فأرسل لأستير يخبرها، وهي بدورها أخبرت الملك أن حارساً يُدعى مردخاي قد اكتشف مخططاً لاغتياله، وارتعب هامان هلعاً أن يأتي اسمه في اعترافات المتهمين ... وتوالت جلسات المحاكمة واعترف المتهمون بكل ما يعرفونه ...

دون ذكر اسم هامان – لأنهم فعلا لا يعرفون أنه هو المحرض، ورغم ثبوت التهمة على الحارسين وإعدامهما إلا أن هامان كان يخامره شك قاتل أن مردخاي يعلم حقيقته* !!

وتم تسجيل بطولة مردخاي في سجلات المملكة (وتدعَى أخبار الأيام) ولكن هامان بذل كل ما في وسعه للتعتيم على القضية ليسقط مردخاي عمداً من ذاكرة أولي الأمر ويظل في عمله المتواضع، بواباً في القصر الملكي كما هو ....!!

ولكنه لم يشعر بالاستياء كثيراً، فهو لم يفعل إلا ما كان يجب أن يفعله. كما أنه لا ينتظر المكافأة من إنسان ..... كائنا من كان.

ولكن ما ساءه حقاً هو سطوع نجم ذلك الأفعوان المدعو هامان الأجاجي .... ورغم ما ساوره من شكوك أن مؤامرة الاغتيال لا بد أن يكون وراءها رأس مدبر هو الذي حرَّض المتهمين، إلا أنه لم يملك دليلاً واحداً ضد هامان.

ولكنه كان يثق أن ذلك الشرير هو أحد الضباع التي تحوم حول مائدة السباع، منتظراً فرصة الانقضاض على الفريسة بل وعلى السبع نفسه.

---

* رغم أن الكتاب المقدس لم يذكر أن هامان كان يشك أن مردخاي يعرف أنه متآمر على الملك إلا أننا يمكن أن نستنتج ذلك ضمناً لأن المتآمر بطبعه يشك في كل من حوله ... خاصة من اكتشف المؤامرة.

هامان يضطهد مردخاي

ورغم أن هامان هو الفاعل الرئيسي في مؤامرة الاغتيال إلا أن الملك المخدوع كان يعتبره ذراعه اليمنى ويطلق يده في شئون المملكة، وأعطى أوامره أن يسجد الجميع أمامه ..... -ليس سجود الاحترام والتوقير- بل سجود العبد للإله!! ..... وعاد مردخاي إلى منزله ووجهه يفضح ما به من هموم لتستقبله مريم محاولة أن تخفف عنه.

مريم: زوجي الحبيب، ما لي أراك عابساً على غير عادتك؟

مردخاي: سامحيني يا زوجتي، ولكنها ضغوط العمل.

مريم: الرب يعينك. ولكن ما الذي استجد؟ أخبرني، فكلي آذان صاغية.

مردخاي: إنه هامان الأجاجي ... ذلك الشرير الذي يستأثر بكل السلطة في يده.

مريم: هل هو من نسل أجاج العماليقي؟

مردخاي: نعم يا مريم، هل تتخيلين؟ منذ ٦٠٠ عام كان شاول البنيامينى يحكم إسرائيل -ورغم اعتزازي بكوني من نفس سبطه- إلا أنه تقاعس عن تنفيذ أمر الرب له بإبادة الملك أجاج العماليقي هو وكل نسله (١صم١٥) واليوم ها أنا أدفع ثمن خطأ أحد جدودي فأجبر على السجود أمام حفيد أجاج.

مريم: وما الضرر في توقير الرجل الثاني في المملكة؟

مردخاي: لا مانع من التبجيل والاحترام، ولكنه يعتبر نفسه إلها ويطلب من الجميع والسجود أمامه كعبادة لشخصه.. (أس٣:٢) وحاشا لي أن أكسر وصية إلهي وأسجد لغيره.

مريم: هذا الرجل لن يتركك في حالك وسيقيم الدنيا ضدك.

مردخاي: أعلم هذا، ولكن ماذا أفعل؟ إن السجود أمامه حل مرفوض

مريم: ليتنا نعود إلى أورشليم ونهرب من وجهه.

مردخاي: إن نفوذه وسلطانه يشمل كل تلك المناطق .. ولكن لنا إلهاً يقدر أن ينجينا من كيده ... كما نجَّى الفتية الثلاثة من نبوخذنصر ومن بعدهم نجىَّ دانيال أيام داريوس.

مريم: الرب يعطيك قدر إيمانك وأكثر.

ويعود مردخاي إلى عمله .. ويمر موكب هامان فتنحني الرؤوس خضوعاً، أما رأس مردخاي فيظل مرفوعاً !! ويشعر زملاء مردخاي بالخطر الذي يتهدده فيحاولون إقناعه بتغيير موقفه، ولكنه يشرح لهم أنه لا يحمل بغضة أو عداءً لشخص هامان، ولكنه يهودي ... والسجود لغير إلهه أمر دونه الموت، ويتعجب الزملاء من أمر رجل يخاطر بحياته تنفيذاً لوصية إله لا يراه .. فيعاودون المحاولة يوماً بعد يوم دون جدوى... رغم أن مردخاي كان محبوباً

من معظم زملائه إلا أن الأقلية التي تضطهد الأتقياء* في كل زمان ومكان (٢تي٣:١٢) وجدت في فعلته هذه فرصة سانحة للوقيعة مع هامان والخلاص منه.

مردخاي وحده يرفض السجود أمام هامان

فهرعوا لهامان يلفتون نظره لتلك الهامة المرفوعة وسط الرؤوس الساجدة، فيستشيط غضباً من هذا النكرة الذي يتحداه ويُضَيِّع هيبته، ويدقق هامان النظر فيتأكد أن من يتحداه هو ذلك البواب الذي أفسد خطة اغتيال الملك وتسبب في إعدام رجلين من أعوانه مدعياً انه يحب الملك. والآن ها هو يضرب بأوامر الملك عرض الحائط....

* **وَجَمِيعُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَعِيشُوا بِالتَّقْوَى فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ يُضْطَهَدُونَ.** (٢تي٢:١٢)

وكلما مر هامان بباب الملك يزداد حنقاً على ذلك الرجل ويرى في شموخه ورأسه المرفوعة تحدياً سافراً، بل واتهاما بتدبير مخطط الاغتيال.... وبدأ هامان يسمع بأذنيه تعليقات العبيد على ذلك البواب الذي يتحدى هامان ومن ورائه الملك بدعوى أنه يهودي لا يسجد لإنسان ... حتى إذا كان هامان!!

وعاد هامان إلى منزله، وقسمات وجهه تفشي ما يعتمل داخله، والغيظ المكبوت يفجر أحشاءه، وتستقبله زوجته "زرش Zeresh" لتصب الوقود على النار.

زرش: ما لي أراك مهموماً مكفهراً؟ ألم نتفق أن تترك مشاكل العمل بمجرد دخولك إلى البيت؟

هامان: أنت لا تدرين كم الأعباء التي أتحملها ... وليتني أجد التقدير المناسب للجهد الذي أبذله.

زرش: وأي تقدير أكثر من هذا يمكن أن تحظى به .. فأنت الرجل الثاني في المملكة والجميع يسجدون أمامك.

هامان: الجميع ... ماعدا رجل واحد يستفزني بشموخه وعنجهيته ورفضه للسجود أمامي.

زرش: ومن هو هذا المتجاسر؟ .. هل ينافسك في مركزك؟

هامان: ليته كان منافساً حقيقياً فأنتصر عليه بل وأقهره، ولكن المشكلة أنه مجرد بواب!!

زرش: وما الذي يجعل أحد البوابين يغامر ويتحداك؟

هامان: لست واثقاً ... ولكن زملاءه يقولون أنه يهودي الديانة ولذا فهو لا يسجد إلا لآلهة السماء الغير منظورة.

زرش: يا للتخاريف والخزعبلات التي يؤمن بها هؤلاء المهاويس. يجب أن تجد له تهمة تلقي به خارج القصر .. أو خارج الحياة كلها!!

هامان: هذا ما يفعله أي شخص عادي، ولكن انتقام هامان يجب أن يتناسب مع مركزه.

زرش: ماذا تقصد؟

هامان: أقصد أنه مادام يرفض السجود لي لدواعٍ دينية ، فاليهود كلهم بالتبعية قد يتعالون عليَّ بنفس الكيفية وتنتشر الفتنة في البلاد.... ولذا يجب الخلاص منهم جميعاً !!

زرش: ولماذا هذا التعميم الذي يظلم آخرين لا ذنب لهم؟

هامان: إن الانتقام من شخص مردخاي هو رد فعل ضعيف لا يتناسب مع مركزي.... .يجب أن أتخلص منه ومن كل قومه .... وأنتقم مما فعله أجداده بجدودي قديماً. (خر١٧ و ١صم١٥)

زرش: وهل بينكم ثأر طويل إلى هذا الحد؟

هامان: هذا أمر شرحه يطول. فالحروب بيننا ضاربة في أعماق التاريخ، فنحن من نسل عيسو وهم من نسل يعقوب أخيه الأصغر

الذي سرق البكورية والبركة بمكر واحتيال. ومنذ أكثر من ألف عام بدأت الحروب بيننا عندما خرج الشعب اليهودي من مصر متوجها إلى كنعان، فتبادلنا جولات النصر والهزيمة جيلاً بعد جيل.

ولكن آن الأوان أن أوجه لهم ضربة قاضية تبيدهم تماماً.... ولكن التنفيذ لن يكون سهلاً. فلا يسهل إقناع الملك بإبادة اليهود من كل الأقاليم... هذا غير التكاليف!!

زرش: لا تقلق .. سنضع خطة محكمة نقنع بها الملك بحتمية القضاء عليهم... دعني أفكر قليلاً ..... وبعون الآلهة سأعطيك الرد الشافي.

ويعمل إبليس بكل حماس في فكر هامان وزوجته. فهو يسعى منذ قرون للتخلص من النسل الملكي الذي يأتي منه المخلص، وقد حاول قبلاً أن يفني اليهود في مصر بيد فرعون ورجاله ولكنه فشل (خر١:٢٢) ، وفشل ثانية على يد الملكة الشريرة عثليا (٢مل١١).

والآن رغم أن عددهم قد زاد وانتشروا في بلاد كثيرة إلا أن الفرصة أصبحت مواتية، لأن كل تلك البلاد تحت سطوة أحشويروش. وبأمر ملكي واحد سيعوض إخفاق الماضي ويضمن استمرار سلطانه على كل بني آدم.

وتعود زرش وقد اختمرت الخطة الجهنمية في ذهنها .... فتعرضها على هامان الذي يطير فرحاً بالحكمة الشيطانية التي تتمتع بها زوجته.

معركة غير متكافئة*

ويسهر هامان طوال الليل يراجع الحوار الذي سيجريه مع الملك في الغد ... وأخيراً وبعد المقدمات المعتادة يدخل في الموضوع قائلاً:

هامان: سيدي الملك يجب أن نحشد كل قوانا استعداداً للمعركة.

الملك: نعم فالوضع العسكري لا يحتمل خسارة جديدة وها أنا في اجتماعات لا تنقطع مع المستشارين العسكريين للتخطيط للجولة الجديدة.

هامان: لذا يجب تطهير صفوفنا من الخونة فهم أخطر من الأعداء.

الملك: فلتدخل إلى التصريح بدلاً من التلميح ... من تقصد يا هامان؟

هامان: من بين ١٢٧ إقليماً تحكمهم يا سيدي، هناك شعب مشتت بين الشعوب في كل بِلاد مملكتك، ولهم عادات مختلفة ولا يطيعون أوامرك، لذا لا يليِق بِالملك تركهم.

الملك: من هم يا هامان ... تكلم سريعاً فجدولي اليوم مزدحم بالكثير من الأعمال والمقابلات التي لا تحتمل التطويل.

هامان: إنهم اليهود يا سيدي .... هؤلاء الذين أتوا من السبي منذ أيام أشور وبابل وسمح لهم كورش العظيم بالعودة فعاد بعضهم وبقى

* عنوان الفصل يعلن عن معركة غير متكافئة بين الوزير والغفير! ولكنه في حقيقة الأمر يعلن أن التفوق الكاسح لخالق هذا العالم وليس لرئيس هذا العالم (إبليس).

بعضهم (٢أخ٣٦:٢٣) وهم الآن متفرقون في أقطار الإمبراطورية يعيثون فيها فساداً وينقلون أسرارنا إلى الأعداء فهم شوكة في ظهرنا وخونة يجب إبادتهم.

الملك: ولكن كيف نقضي على كل هذا الشعب الضخم المتشعب؟ هل نرسل كتائب الجيش من الهند إلى الحبشة لتحصد رؤوسهم؟

هامان: لا يا سيدي .. لئلا نخسر جهد جيشنا العظيم ... فتطهير الجبهة الداخلية يقع على عاتق الشعب كله. لقد فكرت طويلاً في الأمر قبل أن أعرضه عليك، ووجدت أن الحل الأمثل هو أن نحدد يوما معيناً نأمر فيه كل شخص في ربوع الإمبراطورية بالهجوم على كل يهودي من جيرانه فيسلب أمواله ويأخذ نصفها غنيمة، ويسلم النصف الآخر للمملكة لتدعيم جيشنا الباسل.

الملك: وكيف سيصل الأمر لجميع الأرجاء؟ ولماذا في نفس اليوم؟

هامان: سنحدد يوماً واحداً معيناً في كل البلاد حتى لا يهرب هؤلاء الملاعين من بلد لآخر، وسنرسل الرسل في كل مكان ليشرحوا للشعب تلك الخطة.

الملك: يجب أن ندبر الكثير من ميزانية المملكة لهذا الأمر.

هامان: سأتكفل بها من حسابي الشخصي، سأرصد ١٠ آلاف وزنة من الفضة لهذه المهمة الوطنية.

الملك: هذا مبلغ ضخم يا هامان ...أتدفعه من حسابك الشخصي! لا أفهم سر حماسك الشديد والمفاجيء!

هامـان: لأنـي أحـب بـلادي التـي ترعرعـت بـين ربوعهـا، وأديـن بـالولاء لأحشـويروش الملـك العظيم الـذي يجـب أن يملـك علـى كـل المسكونة.

الملـك: لـن أقبـل أن تخسـر كـل هـذا المـال، سـتقوم الخزينـة الملكيـة بتدبير المبلغ ونسترده فيما بعد من الغنيمة المتوقعة.

هامان: حسناً وأثق أن الغنيمة ستعوض المبلغ وأكثر.

الملك: وهل حددت اليوم المناسب لتلك المذبحة؟

هامان: ليس بعد ... كنت أنتظر موافقة سموك أولاً، حتى أستشير الآلهة لتحدد ذلك اليوم الموعود حسب مشيئتها .... سنلقي قرعة ونحدد اليوم الموعود ثم أخبر جلالتك.

الملك: افعل ما تستحسنه .... ها هو الخاتم الملكي... اكتب الأمر واختمه، ودعني الآن أستكمل برنامجي المشحون في هذا اليوم.

هامـان: سـمعاً وطاعـة يـا سـيدي، فلتبارك الآلهـة وتحفظـك علـى عرش فارس.

وسريعاً مـا اجتمـع هامـان مـع شـرذمة مـن رجالـه لإجـراء القرعـة. فتشاء إرادة من يمسك كل الخيوط بيده أن تقع القرعة على يوم من الشهر الأخير من السنة. أي بعد ١١ شهراً كاملة من صدور الأمر! ورغم أن هامان كان يتمنى أن تختار القرعة يوماً أقرب حتى ينتقم من غريمه سريعاً. إلا أنه كان يستحيل أن يعصى اختيار الآلهة،

وبدأ يشعر ببشائر الانتصار ... فوقف منتشياً في مدخل القصر واستدعى الخدم والحراس الذين سجدوا أمامه كالعادة ما عدا مردخاي ... وببطء شديد فتح هامان المرسوم الملكي وهو يثبت عينيه في وجه مردخاي وبدأ في قراءته ببطء متعمد، مشدداً على كل حرف فيه ... متلذذا بمشاعر القطة التي تحاور الفأر وتناوره قبل أن تنقض عليه لتلتهمه!

ولم يستطع مردخاي أن يخفي ملامح الرعب التي كست وجهه مما زاد من نشوة هامان الذي دخل إلى الملك ليحتفل بنجاح الخطوة الأولى من الخطة الجهنمية.

وبحرص بالغ قام هامان ورجاله بترجمة الأمر الملكي بكل اللغات وأرسل رسلاً لكل البلدان، حاملين الأمر الملكي بقتل اليهود وسلب ممتلكاتهم في اليوم الثالث عشر من شهر آذار المقبل!!

ويرتعب اليهود هلعاً في كل مدينة تصلها الأوامر، وهم يرون الغوغاء يتوعدونهم بالقتل والسلب عما قريب!!

وبدأ اليهود يفكرون في كيفية الهروب من حكم الإبادة المزمَع تنفيذه، ولكن إلى أين الهروب وكيف؟ فالإمبراطورية شاسعة والهروب إلى بلاد أخرى يحتاج إلى موافقة المسئولين الذين صدرت لهم التعليمات باعتبار اليهود خونة مارقين صدر عليهم حكم الإعدام ولم يتبقَّ سوى التنفيذ لذا يُمنَع خروجهم!!

أما مردخاي فكان حزنه لا يوصف، ويعيش صراعاً لا يستطيع القلم أن يعبر عنه، فإبليس يهاجمه ليلاً ونهاراً بسهامه المسمومة المسنونة الملتهبة وبفحيح الحية التي أسقطت جده الأول آدم يخاطبه كل لحظة:

"أنت السبب في كل ما حدث ....
عنادك جلب الأذى و الموت لكل قومك ...
لقد صممتَ على تبعية الله فماذا جنيت سوى الموت والهلاك؟
ماذا جنيتَ أيها الشقي من وراء المكابرة ورفض النصح ؟
هل تظن أن إلهك سينجيك من بين أنياب هامان؟....هيهات!
لا تحلمْ بمعجزة، فزمن المعجزات قد ولّى وراح.
كان ينبغي أن تنحني للعاصفة حتى تعبر الأزمة.....أنت متكبر ترفض السجود مدعياً التقوى. والآن ادفع ثمن تقواك"

ولا يجد مردخاي سوى ترس الإيمان الذي يحتمي به حتى يطفئ جميع سهام الشرير الملتهبة المسمومة (أف٦:١٦) فيعود إلى كلمة الله ويسترجع معاملات الله مع الشعب فيتذكر كيف نجا يعقوب من سيف عيسو وكيف خرج الشعب من مصر بذراع قوية وأعالهم الرب أربعين سنة في البرية وكيف تمجد مع قديسيه وأنبيائه عبر العصور فيشعر بشيء من الاطمئنان والسكينة يملأ قلبه.

ولكن إبليس لا يكف عن إطلاق سهامه النارية المسنونة التي تحيل حياته وحياة كل الشعب إلى جحيم من القلق والتوتر.

ويقرر مردخاي أن يستعمل أقوى أسلحته حتى ينتقل من موقف المدافع إلى المهاجم في معركته الشرسة مع قوى الشر ... قرر اللجوء إلى الصوم والصلاة والتذلل أمام القدير.... فشق ثيابه وارتدى المسوح (وهي ملابس خشنة من الخيش) ووضع عليها الرماد (علامة الانسحاق الكامل) وتوجه إلى أكبر الميادين ليرفع صلاة علنية مع جمع من اليهود الذين لبسوا المسوح معه وتجمهروا في وسط المدينة.

وبدأ مردخاي صلاته بصرخة مرة مدوية صادرة من أعماق نفس تشعر بقهر الظلم والاستبداد فقال:

"اللَّهُمَ أيُهَا الربُّ المَلِكُ القادِرُ عَلَى الكلَّ إذ كلُّ شيءٍ في طاعَتِك وليسَ من يقاومُ مَشيئتَك إذا هَمَمتَ بنجَاةِ إسْرائيل.

أنتَ صنعتَ السماءَ والأرضَ وكلَّ ما تحتَ السماواتِ.

أنتَ ربُّ الجَميع وليسَ من يقاومُ عزتَك.

إنكَ تعرفُ كلَّ شيءٍ، وتعلمُ أني لمْ أسجدْ لهامانَ العاتي، لا تكبراً ولا احتقاراً ولا رَغبة في شيءٍ من الكرامةِ فعلتُ هذا.

فإني مستعدٌ أن أقبّل حتى آثار قدمَيه عن طِيبِ نفسٍ لأجلِ نجاةِ إسرائيلَ .... ولكِن خفتُ أن أحَوِّل كرامةَ إلهي إلى إنسانٍ وأعبدُ أحداً سِوى إلهي.

فـالآنَ أيهـا الـربُّ الملـكُ إلـهُ إبـراهيم، ارحـمْ شعبـَك لأن أعـدَاءنا يَطلبُـون أن يُهلكونـا ويَستأصـلوا مِيراثـك، لا تهمـلْ نصـيبَك الـذي افتديتـَه لـكَ من مصرَ واستجبْ لتضرُعِي واعطفْ على نصيبـِك وميراثِك وحَوِّل حُزننا فـَرحاً لنحيا ونـُسبِّح اسمَك أيها الرب، ولا تسِّد أفواهَ المُرنمين لك." ..... وكذلك جميـعُ إسرائيلَ بروحٍ واحدٍ وتضرُعٍ واحدٍ صَرخُوا إلى الربِّ من أجلِ أنَّ الموتَ أشرفَ عليهُم يقيناً. (تتمة أستير١٣: ٩-١٨)

وفي كل مدينـة وصل إليها أمر الملك كانت نفس المناحـة تحدث، فترتفع صلوات الشعب وتشق طريقها إلى عنان السماء لتحرك قلب الجالس على العرش.

وسـريعاً مـا تطـايرت الأنبـاء وعرفـت أسـتير فـي قصـرها أن أباهـا يلبس المسوح وينـوح فـي أكبـر ميـادين العاصـمة، ولكنهـا لـم تعـرف السبب، فانفطر قلبهـا، وأرسلت لـه مـا يلبسـه بـدلاً مـن المسـوح كـي يعـود إلـى مكـان عملـه فـي القصـر، ليكـون قريبـاً منهـا وتفهـم سـبب حزنه ونواحه ولكن مردخاي رفض، فعـاد الرسـول ليخبرهـا أنـه مـا زال ينوح مُصِّراً على ارتداء المسوح.

ولم تستسلم أستير فأرسلت رسولاً أكبر منـه وهـو "هتـاخ" خصـي الملك لتستعلم منـه لمـاذا يفعل هـذا؟ ومـا هـو المطلـوب منهـا حتـى تساعده في إنهاء كربه؟

وبعد قليل عاد هتاخ إلى أستير حاملاً نسخة من الأمر الملكي بإبادة اليهود. وما أن قرأته أستير حتى اكتسى وجهها بمسحة قاتمة من الحزن، وفرت الدموع متلاحقة ملتهبة.

هتاخ: إن هامان هو الذي وضع تلك الخطة وعرض رصد المبالغ اللازمة لها ولذا فإن مردخاي يرجوكِ أن تدخلي إلى الملك وتتضرعي إليه من أجل شعبك.

أستير: يا للهول، الكل يعلم أن الملك الآن في الدار الداخلية حيث يُجري المشاورات العسكرية. ودخولي دون استدعاء يعرضني للإطاحة برأسي.

هتاخ: هو يعلم ذلك، ولكنه يرى أن الملك حتما سيشير إليك بقضيب الذهب علامة العفو وينصت لطلباتك.
أستير: هذا العفو نادراً ما يحدث، أخبره أن الملك مشغول تماماً مع قادة الجيش حتى أنه لم يقابلني منذ شهر كامل.
هتاخ: أنا أعلم كل ذلك، ولذا فقد أقنعت مردخاي أن يعود إلى منزله الليلة، ووعدته أن أعطيه الرد غداً.

وهناك في بيت مردخاي كانت مريم في انتظار عودته عندما دخل عليها مكدوداً وقد أضناه الصوم والتعب والنواح فبادرت إلى غسيل رجليه وقالت له:

مريم: كيف كان يومك؟ هل استطعت الوصول إلى أستير؟
مردخاي: لقد أرسلت لها مع هتاخ أنها يجب أن تدخل إلى الملك مهما كان الثمن.

مريم: أيهون عليك أن تُعَرِّض حياتها للخطر يا مردخاي؟
مردخاي: إن حياة الشعب كله في خطر ... فهل أهتم بنفسي أو ابنتي أكثر مما أهتم بالشعب كله؟

مريم: لا تفقد سلامك ... فالله لن يتركنا، وقطعاً سيتدخل لينجينا.
مردخاي: كلي ثقة ورجاء في الله . ولكن كيف سيعمل الله؟ وكيف سيتدخل؟ ألن يعمل من خلالنا نحن شعبه؟

مريم: لا تقلق ... **"الرَّبُّ يُقَاتِلُ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ تَصْمُتُونَ"** (خر١٤:١٣)
ثق أن الله سينجِّينا مثلما نجَّى شعبه من فرعون.
مردخاي: ألا تعرفين أن هامان عدونا من نسل عماليق؟؟

مريم: أعرف!! ولكن ما علاقة هذا بموضوعنا؟
مردخاي: اصبري قليلاً ..... ستعرفين عندما تحكين لي ماذا حدث في حرب شعب الله مع عماليق عقب عبور البحر.

مريم: لقد وقف موسى يصلي رافعاً يديه فوق التل فيما كان يشوع يقود جيشاً يحارب به عماليق.
مردخاي: وماذا حدث عندما كان موسى يتعب ويخفض يديه؟
مريم: كان الشعب ينهزم وعماليق يغلب.

مردخاي: وماذا لو كان موسى يصلي ويشوع يتقاعس عن الحرب؟

مريم: نفس الشيء .. الشعب ينهزم.

مردخاي: أرجو أن تكون الرسالة قد وصلتك واضحة .

فوقت عبور البحر كان الشعب في بداية حياته الروحية، فتولت نعمة الله إنقاذ هذا الشعب دون أي جهاد منهم.

أما عندما عبروا البحر وأكلوا المن السماوي وشربوا ماءً من الصخرة فقد طلب منهم الله أن يشاركوا بجهادهم حتى ما يتضافر الجهاد والنعمة في خلاصهم، وهي نفس القاعدة التي سار عليها الله فيما بعد في حرب يشوع مع أريحا وحرب جدعون مع مديان.

مريم: بدأت أفهم وجهة نظرك. ولكن كيف نطبقها في حالتنا؟

مردخاي: ثقي يا مريم أن اختيار أستير ملكة للبلاد ليس صدفة، بل هو ترتيب إلهي لتقوم بدورها في تلك اللحظات الحرجة.

كل الشعب يجب أن يصوم ويصلي وينسحق متذللاً أمام الرب.....

وكل من يقدر أن يقدم عملاً إيجابياً فيجب أن يقدمه.

مريم: إذن أنت ترى أن تدفع أستير لمقابلة الملك!

مردخاي: بالطبع فنعمة الله تعمل في من يجاهد، لا في من يتخاذل متمسكاً أنه في كل موقف سيصمت ويتولى الرب القتال عنه دون أن يشارك هو بنفسه.

مريم: وماذا لو رفضَتْ؟ أو عجزت عن الوصول للملك؟

مردخـاي: تأكـدي أن الله لـن يعجـز عـن إيجـاد عشـرات الوسـائل الأخـرى ... ولكنهـا لـو تقاعسـت فهـي التـي ستخسـر تلـك الفرصـة الفريدة أن تكون أداة في يد الله.

مـريم: أنـا مرتعبـة يـا مردخـاي ... الملك فـي مجلس عسكري وهذا الموقف سيشعره بإهانة كرامته أمام القادة فيطيح بعنق ابنتنا.

مردخاي: **ثقي أن قَلْبُ الْمَلِكِ فِي يَدِ الرَّبِّ كَجَدَاوِلِ مِيَاهٍ، حَيْثُمَا شَاءَ يُمِيلُهُ.** (ام٢١:١) لذا فالموضوع برمته بين يدي إلهنا الحنون.

وفـي الصـباح عـاد مردخـاي إلـى موقعـه، لابسـاً مسـوحه رافعـا صلواته. ويأتيه هتاخ ليشرح له خطورة ما يطلبه من أستير. فيرد عليه قائلا:

ـ قل لأستير "لاَ تَفْتَكِرِي فِي نَفْسِكِ أَنَّكِ تَنْجِينَ فِي بَيْتِ الْمَلِكِ دُونَ جَمِيعِ الْيَهُودِ ..... لأَنَّكِ إِنْ سَكَتِّ سُكُوتًا فِي هذَا الْوَقْتِ يَكُونُ الْفَرَجُ وَالنَّجَاةُ لِلْيَهُودِ مِنْ مَكَانٍ آخَرَ.

وَأَمَّا أَنْتِ وَبَيْتُ أَبِيكِ فَتَبِيدُونَ.

وَمَنْ يَعْلَمُ إِنْ كُنْتِ لِوَقْتٍ مِثْلِ هذَا وَصَلْتِ إِلَى الْمُلْكِ؟" (أس٤: ١٣-١٤)

ويعود هتاخ أخيراً حاملاً الرد الذي كان مردخاي يتمنى سماعه:

«اذْهَبِ اجْمَعْ جَمِيعَ الْيَهُودِ الْمَوْجُودِينَ فِي شُوشَنَ وَصُومُوا مِنْ جِهَتِي وَلاَ تَأْكُلُوا وَلاَ تَشْرَبُوا ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ لَيْلاً وَنَهَارًا. وَأَنَا أَيْضًا وَجَوَارِيَّ نَصُومُ كَذلِكَ. وَهكَذَا أَدْخُلُ إِلَى الْمَلِكِ خِلاَفَ السُّنَّةِ.(= كسراً للقانون) فَإِذَا هَلَكْتُ، هَلَكْتُ». (أس٤:١٦)

وهكذا انصرف مردخاي وهو يشكر الله أنه نجح في تربية وتنشئة ابنته التي لم تستنكر أن تكون مثل إسحاق وتصعد بنفسها على المذبح وترى أباها يمسك السكين ويضعه على عنقها، وتخاطر بحياتها لتفدي شعبها.

وبدأ مردخاي مع الشعب كله صوماً حقيقياً لثلاثة أيام كرسوها للصلاة والتذلل والانسحاق والتعبد

أما أستير فقد تحولت أنفاسها إلى صلاة دائمة تستمطر بها مراحم الله وخلعت الثياب الملكية وكللت رأسها بالرماد تذللاً أمام الله وجمعت جواريها ليشاركنها الانسحاق وأخذت تتلو عليهم بعضاً من المزامير التي حفظتها منذ حداثتها:

لِمَاذَا ارْتَجَّتِ الأُمَمُ، وَتَفَكَّرَ الشُّعُوبُ فِي الْبَاطِلِ؟ قَامَ مُلُوكُ الأَرْضِ، وَتَآمَرَ الرُّؤَسَاءُ مَعًا عَلَى الرَّبِّ وَعَلَى مَسِيحِهِ، قَائِلِينَ: «لِنَقْطَعْ قُيُودَهُمَا، وَلْنَطْرَحْ عَنَّا رُبُطَهُمَا».

اَلسَّاكِنُ فِي السَّمَاوَاتِ يَضْحَكُ. الرَّبُّ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ. حِينَئِذٍ يَتَكَلَّمُ عَلَيْهِمْ بِغَضَبِهِ، وَيَرْجُفُهُمْ بِغَيْظِهِ .... (من المزمور الثاني)

السّاكِنُ في عَوْنِ العَلـيّ، يَسْتَريحُ في ظِلِّ إلـهِ السَّماءِ. يَقولُ للرَّبِّ أَنْتَ هُوَ ناصِري و مَجَني، إلَهي فأتَّكِلُ عَليهِ. لأَنَّهُ يُنجّيكَ مِنْ فَخِّ الصَّيّادِ، ومِنَ الوَباءِ الخَطِرِ. في وَسَطِ مَنْكبيْهِ يُظلِّلُكَ، وتَحْتَ جَناحَيهِ تَعْتَصِمُ، عَدْلهُ يُحيطُ بِكَ كالسِّلاح. فَلا تَخْشَى مِنْ خَوْفِ

اللَّيْلِ ولا مِنْ سَهْمٍ يَطيرُ في النَّهار، ولا مِنْ أمْرٍ يسْلكُ في الظُّلمَةِ، ولا مِنْ هَلاكٍ يفسد في الظَّهيرَةِ. يَسْقطُ عَنْ يَسارِكَ أُلوفٌ وعَنْ يَمينكَ رِبْواتٌ، وأمّا أنْتَ فَلا يقْتَربُ إليْكَ الشَّرُّ بَلْ بِعَيْنيْكَ تُعايِنُ ومُجازاةُ الخُطاةِ تُبْصرُ. (مز ٩١)

وفي مخدعها اعترفت أمام الله بخطاياها وخطايا الشعب كله الذي استحق السبي لأنه انجرف لعبادة الأوثان وصلت قائلة:

اذكرْنا يا ربُّ واسْتعلن وَجهَك لنا في وقتِ الضِيق وضَع في فَمي كَلامَ الحكمةِ عِندما أقفُ أمامَ ذلكَ الأسدَ أحشويروش، حوِّل بغضتَهُ يا ربُ إلى أعدَائنا وأنقِذنا نحنُ الذين ليسَ لنا معينٌ سواكَ أيُها الربُ العالمُ بكلِّ شيءٍ .... أنتَ تعلمُ أني أبغضُ مجدَ الظالمِين وأكرهُ كلَّ هذا المجدَ والأبَّهة ومظاهرَ العظمةِ التي تحيطُ بي، وأني أمتَك التي لم تفرُح بشيءٍ منذُ دخلتُ هذا القصرِ إلا بكَ أيها الربُّ القديرُ إلهُ إبراهيم فاستجبْ يا ربُّ لتضرعِ من لا رجاءَ لهم سواك ونَجنا من أيدي الأثمةِ يا ربُ. (أجزاء من تتمة أستير الأصحاح ١٤)

وكان صوم أستير وتذللها مثل مجمرة اشتعلت بالفحم المتوهج وضعت عليه صلواتها كلُبان نقي يحترق.

فصعدت تلك الصلوات أمام العرش الإلهي ليشتَمَّها كرائحة بخور ويقبلها الرب بكل سرور.

أستير تحمل النير*

فلما كان اليوم الثالث استجمعت أستير أطراف شجاعتها وخلعت عنها ملابس النسك والتذلل وتزينت بالنعمة الإلهية قبل أن تتزين بالحلي الذهبية وكان الصوم قد أنهك جسدها حتى شعرت أن قدميها لا تقويان على حملها فاستندت على جاريتين مقربتين إليها، لتشق طريقها إلى الدار الداخلية حيث يجتمع الملك مع مستشاريه.

وعند كل بوابة كان الحرس يحاولون منعها ويحذرونها أنها قد تفقد حياتها جراء إصرارها على اقتحام الاجتماع دون دعوة .... ولكن إزاء تصميمها يتركونها وهم يشعرون أن هذه قد تكون المرة الأخيرة التي يرون فيها صاحبة هذا الوجه الجميل التي اقتحمت الأبواب واحداً تلو الآخر. حتى دخلت القاعة التي يجتمع فيها الملك مع مستشاريه وسط دهشة الحاضرين من جرأتها بل وحماقتها.

وتعلقت الأنظار بالقضيب الذهبي الذي يحمله الملك فحركة منه تفصل بين حياة الملكة وموتها، وانحبست الأنفاس للحظات مرت كالدهر على أستير التي كادت تفقد وعيها وهي تنتظر تقرير المصير. فإما سماع حكم الإعدام أو العفو التام.

---

* النير هو قيد يوضع على عنق الدابة التي تجر المحراث ويوضع حول عنق العبد أو الأسير المراد إذلاله ... وقد أمرنا الرب أن نحمل النير طواعية: "اِحْمِلُوا نِيرِي عَلَيْكُمْ...لأَنَّ نِيرِي هَيِّنٌ وَحِمْلِي خَفِيفٌ" مت١١ :٢٩

وساد صمت رهيب وشعرت أستير بدقات قلبها أعلى من طبول الحرب - وهي بالفعل حرب لا بد فيها من منتصر ومهزوم.

أما الملك أحشويروش فقد أسَرَه ذلك الجمال الهادئ، وسلبت عقله تلك النعمة الغنية التي تفيض من وجه أستير؛ فوجد نفسه يرفع القضيب الذهبي ويضعه على رأسها (علامة العفو الملكي) لتنطلق تنهيدة الارتياح من جميع الحاضرين، وبالطبع كان على رأسهم أستير التي ارتسمت على وجهها ابتسامة الرضا والشكر.

وأدرك الملك حجم المعاناة التي تعتصر قلب الملكة المحبوبة حتى أنها خاطرت بحياتها من أجل الوصول إليه، فأراح قلبها بابتسامة عريضة وكلمات مبهجة:

أستير تنتظر لحظة تقرير المصير

الملك: مَا لَكِ يَا أَسْتِيرُ الْمَلِكَةُ؟ وَمَا هِيَ طِلْبَتُكِ؟ إِلَى نِصْفِ الْمَمْلَكَةِ تُعْطَى لَكِ

أَسْتِيرُ: إِنْ حَسُنَ عِنْدَ الْمَلِكِ فَلْيَأْتِ الْمَلِكُ وَهَامَانُ الْيَوْمَ إِلَى الْوَلِيمَةِ الَّتِي عَمِلْتُهَا لَهُ.

وتعجب الملك من تواضع الطلب!!

أتخاطر بحياتها لتدعوه على العشاء؟

ولكنه أدرك بفطنته أن هذه ما هي إلا مقدمة لطلب ليس من المناسب أن تعلنه في هذا الزمان وهذا المكان.

فَقَالَ الْمَلِكُ: أَسْرِعُوا بِهَامَانَ لِيُفْعَلَ كَلاَم أستير.(أس٥:٥)

وسريعا ما طار الخبر إلى هامان فشعر بمزيد من الفخر والخيلاء... فهذا يؤكد مكانته في الإمبراطورية.

وطار الخبر أيضاً إلى مردخاي أيضاً فتنفس الصعداء ...

فها هو الرب قد أنصت لصوم الشعب وصلاته وخرجت ابنته من محضر الملك ورأسها ما زال على عنقها!

وهذا في حد ذاته إنجاز عظيم قطعت به نصف الطريق .... وواصل مردخاي صلاته الدائمة حتى يكمل الله عمله معهم.

وأرسل مردخاي لأستير رسالة ألا تتعجل وتصرح بطلبتها أمام الملك أثناء الوليمة في تلك الليلة، بل لتجعلها جلسة هادئة فتشكره على تلبية دعوتها وتؤجل طلبتها لوليمة أخرى في الليلة التالية.

ورغم أن أستير لم تقتنع تماماً بجدوى هذا التأجيل، إلا أنها كانت قد تعلمت جيداً طاعة أبيها حتى وإن لم تفهم السبب. ....!!

بل إن مردخاي نفسه كان يطيع صوتاً إلهياً يهمس في داخله أن ينصحها بهذا دون أن يعرف لماذا. ولكنه أطاع أيضاً.!!

وفي المساء امتدت الموائد لوليمة العشاء الفاخرة .. والفضول يطل من عيون الملك وهامان لمعرفة الطلبة التي خاطرت أستير بحياتها من أجل عرضها ... ولم يطِق الملك انتظاراً، فسألها سؤالاً مباشراً:

الملك: مَا هُوَ سُؤْلُكِ فَيُعْطَى لَكِ؟ وَمَا هِيَ طِلْبَتُكِ؟ إِلَى نِصْفِ الْمَمْلَكَةِ تُقْضَى.

أَسْتِيرُ: إِنَّ سُؤْالِي وَطِلْبَتِي -إِنْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ وَحَسُنَ عِندكَ- أَنْ تَأْتِيَ مع هَامَانُ إِلَى الْوَلِيمَةِ الَّتِي أَعْمَلُهَا لَكُمَا غَدًا فأقول لك ما هي طلبتي.

وتعجب الملك من زوجته الحسناء التي تطيل من دلالها وغموضها فلا تفصح عن رغبتها -التي خاطرت بحياتها في سبيلها- إلا بعد يوم آخر من الانتظار والترقب.

أما هامان فقد شعر بنشوة الزهو والكبرياء وهو يرى الملكة تصر أن تكرر دعوتها له للمرة الثانية ... هو والملك فقط دون سائر عظماء المملكة... وخرج من محضرها منتفخ الأوداج يُمَنّي نفسه بالعرش والتاج.

العدل الإلهي

وخرج هامان كالطاووس عندما يفرد ذيله، شاعراً أن هذه الأرض لا تستحق شرف وجوده عليها! وأن الوقت قد حان لينفرد بعرش الإمبراطورية.

وبينما هذه الأفكار والشهوات تداعب خياله مر قبالة البوابة التي يحرسها مع غيره من الحراس ... فأحني الجميع رؤوسهم حتى لامست الأرض، ما عدا ذلك الوغد الشرير المدعو مردخاي فظل جالساً ... لم يسجد، .... وحتى لم يقف! ولم يحرك ساكناً وكأنه لا يرى ظل الإله الذي يمر أمامه.

وانقلب فرح هامان إلى ترح، والكبرياء والخيلاء إلى غيظ واستياء، فدخل بيته وكل قسمات وجهه تفضح ما بداخله من غضب مكتوم يكاد يفجر الأحشاء .... فاستحضر زوجته زرش وأبناءه العشرة ليجدوا له حلاً قبل أن يموت كمداً.

زرش: اهدأ قليلاً يا هامان حتى نجد حلاً لهذا الرجل.

هامان: لا أستطيع، لا أستطيع. فكل شيء تحت قدمي ... المال الجاه السلطة والجبروت ... فأنا ثاني رجل في الإمبراطورية، حتى أن أستير لم توجه الدعوة لأحد مع الملك سواي، ولكن كل هذا لا يساوي شيئاً كلما مررت بتلك الحشرة .... هذا اليهودي الحقير.

أحد الأبناء: ألم يصدر الملك أمراً بقتل اليهود وإبادتهم جميعاً؟

هامان: نعم ولكن ما زال أمامنا تسعة شهور فيها ٢٧٠ يوماً طويلاً، فإذا رأيت مردخاي ثانية لدى ذهابي إلى وليمة أستير غداً فقد أقتله بسيفي، أو أنفجر غيظا وهو يحتقرني ويتجاهلني.

أحد الأبناء: إذن فهو يجب أن يموت في صباح الغد.

ابن آخر: فلترسل أحد جنودك يا أبي فيأتيك برأسه ونعلقها على بوابة القصر.

زرش: كلا كلا إن قطع رأسه يعتبر شفقة لا يستحقها.

ابن آخر: إن ميتة مردخاي يجب أن تكون عِبْرَة لكل من تسوّل له نفسه أن يحتقر هامان العظيم.

ابن آخر: أقترح أن يُصلَب يا أبي.... فالموت البطيء على الصليب هو العقاب العادل لما يسببه لك من أسى وأذى.

زرش: نعم. ويجب أن يكون الصليب عالياً شاهقاً حتى يراه كل أوغاد شوشن.

هامان: فلنفكر في تهمة تقنع الملك بوجوب إعدامه سريعاً.

زرش: فلتخبر الملك أنه يتجاهل موكبك ولا يسجد أمامك.

هامان: لا لا إن كرامتي لا تسمح لي أن أشكوه للملك بتلك التهمة التافهة... فقد يعاقبه الملك بعقوبة أقل من الموت.

ولكني سأتهمه بالخيانة العظمى نعم وسأثبت التهمة عليه بأن أخبر

الملك أني شككت فيه، وبتفتيشه وجدت في جيوبه بعض الوثائق السرية والخرائط التي كان ينوي تسريبيها للأعداء*.

أحد الأبناء: ألا تظن أن الملك قد يتشكك في أقوالك.

هامان: الملك لا يثق في أي شخص أكثر مني. كما أني سأطلعه على بعض الوثائق والخرائط العسكرية الحقيقية التي أملكها، وسأدَّعي أني وجدتها مع مردخاي.

زرش: خطة عظيمة يا زوجي ... فلنشرب نخب خطتنا ثم نأوي إلى مخادعنا فأنا مجهدة للغاية.

هامان: فلتنامي أنتِ. أما أنا وأبنائي فلدينا سهرة طويلة ... سنستدعي النجارين ونعد صليبا عاليا يليق بمردخاي العزيز!

زرش: هل سيبدأ النجارون عملهم الآن؟ ... أليس الصباح أفضل.

هامان: لن أستطيع النوم إلا بعد أن أرى الصليب الحبيب يرتفع خمسين ذراعاً (٢٥متراً أي بارتفاع مبنى مكون من ٨ ادوار!!) حتى يراه كل الناس فيعرفون عقوبة من يغضب عليه هامان.

زرش: هل ستقوم بإعداده هنا ..... والآن؟

هامان: نعم في هذا الزمان وهذا المكان ... في حديقة قصري ... حتى نستمتع كلنا بمشاهدته على الصليب غداً ... يا له من يوم جميل هذا الغد. كم أتوق إليه ليته يأتي الآن وفوراً.

أحد الأبناء: إني لم أشهد حكم الإعدام صلباً من قبل.

---

* لم يذكر الوحي المقدس ما هي التهمة التي كان هامان يعدها لمردخاي

هامان: سيكون واحداً من أروع المشاهد ... أنينه سيشفي كل الآلام ودمه سيروي غليل الانتقام.

ابن آخر: إنك تقول سجعاً ... بل شعراً يا أبي.

وقهقه هامان بصوت أجش: إن نشوة الانتصار تفجر مواهبي المدفونة ... أخيراً سأستمع برؤية الغربان وهي تنقر عيونه، والصقور والنسور تنهش لحمه.

أحد الأبناء: منذ زمن طويل لم أرَك سعيداً هكذا يا أبي!

هامان: إنها لذة الانتقام ... لذة رائعة ... تفوق الطعام والشراب والجنس .. إنها أروع لذة في الوجود إنها لذة الملذات كلها ..... الانتقـــــــــــــــــــــــــام.

وفي الحال خرجت الأوامر ليأتوا بالنجارين من منازلهم لعمل قاعدة خشبية كبيرة تعلوها أخرى أصغر ثم أصغر كالهرم المدرج، لتنتهي بعامود خشبي طويل جداً... وانتشر هامان وأبناؤه يشرفون على العمل بهمة ونشاط.

ورغم أن ضجيج المطارق والمسامير قد حرم زرش من النوم، إلا أن سعادتها كانت أكثر بكثير، فضحت بالنوم لترى الفرح يطل من عيون الزوج والأبناء واللهفة تجعلهم يسابقون الزمن فيسبقوه.

فسهرت معهم تشاركهم في إعداد الصليب ليتوسط الحديقة !

وإذا كان هامان وأسرته قد حُرموا من النوم في تلك الليلة حتى ينجزوا مهمتهم. فإن النوم قد طار أيضاً من عيني الملك دون سبب ظاهر. وأخذ يفكر في السبب الحقيقي الذي جعل أستير تخاطر بحياتها، وتساءل هل ستفصح في الغد عن طلبتها أم تؤجلها ثانية .... ورغم الفضول الذي استبد به إلا أنه شعر في أعماقه بالإجلال والاحترام لهذه السيدة التي لا تسرع بسرد مطالبها قبل أن تستمتع بشخص الملك وبالتواجد في محضره وصحبته.

وأغلق الملك جفونه طويلاً ... لعل النوم يتحنَّن ويزوره، ولكن النوم كان قد أعلن العصيان وصمم ألا يزور تلك الأجفان. فلما طال مرقده وتقلب طويلاً دق جرساً صغيراً ليستدعي أحد الخدم.

الخادم: عبدك المطيع يا مولاي.

الملك: النوم قد جافاني، أريد جارية تعزف لحناً هادئاً على القيثارة.

الخادم: سمعاً وطاعة يا مولاي.

الملك: لا ... لا ترسل لها فربما يعجبني عزفها فلا أنام، بل اذهب إلى مكتبة القصر واختـَر كتاباً لتقرأه لي بصوتك الرتيب فهو خير منوم !!

الخادم: سمعاً وطاعة يا مولاي ... هل تريد كتاباً معيناً؟

الملك: ستجد مئات من الكتب المدون فيها يوميات المملكة، دع الصدفة المحضة تختار كتاباً يروق لك وأحضره سريعاً.

ودخل الخادم إلى مكتبة ضخمة ونظر إلى مئات الكتب المرصوصة على رفوف تصل إلى سقف القاعة فاحتار ... ماذا يختار؟

ولكن لماذا يجهد نفسه في الاختيار إذا كان الملك قد أشار أن يترك للصدفة* حق القرار. فمد يده لكتاب ضخم وهرول عائدا، ليفتحه من المنتصف في عجلة وبدأ يقرأ بصوته الرتيب:

"وفي ذلك اليوم اكتشف مردخاي مؤامرة لاغتيال جلالة الإمبراطور المعظم أحشويروش. وبعد التحقيق وثبوت التهمة تم إعدام الخائنين ونجا ملكنا المحبوب من موت محقق."

واتسعت عينا الملك وسأل الخادم:

الملك: من هو مردخاي هذا؟

الخادم: إني أعرفه يا مولاي فهو يعمل حارساً على باب القصر.

الملك: ألم ينل تكريما أو وساماً أو ترقية؟

الخادم: على حد علمي فإن شيئاً من هذا لم يحدث يا مولاي.

الملك: يا للجحود! أينقذ حياتي فأتجاهله وأنساه ؟ حاشا!!...

ليست هذه شِيَم الملوك. غداً سأبدأ يومي بتصحيح الخطأ.

---

* البعض يعتبرها مجرد صدف ... أما المؤمنون فيثقون أنها الإرادة الإلهية التي تجعلَ كُلَّ الأَشْيَاءِ تَعْمَلُ مَعًا لِلْخَيْرِ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ اللهَ، الَّذِينَ هُمْ مَدْعُوُّونَ حَسَبَ قَصْدِهِ. (رو٨:٢٨) **فبالصدفة** يصاب الملك بالأرق، **وبالصدفة** يختار كتابا، **وبالصدفة** يفتحه على تلك الصفحة بالذات، **وبالصدفة** يحدث كل هذا في ليلة إعداد الصليب لإعدام مردخاي !!

وبعد دقائق كان الملك يغط في نوم عميق فانسحب الخادم في هدوء.
أما مردخاي فقد عاد إلى منزله في تلك الليلة وهو يشكر الله على ما فات، ويسأله أن يتمم صنيعه فيما هو آت. ودخل منزله ليقص على مريم زوجته تفاصيل اليوم المشحون قبل أن يخلد إلى سريره مستمتعاً بسلام الله الذي يفوق كل عقل، تاركاً السهد والسهر في قصر هامان وقصر الملك !!!
ومع بزوغ الفجر استيقظ مردخاي على صوت طرقات متلاحقة وفتح الباب مسرعاً ليجد صديقاً قديماً، وهو أحد النجارين الذين شاركوا في صنع الصليب.

مردخاي: أهلاً بك يا صديقي العزيز، لم أرَك منذ زمان. تفضل.
النجار: لا يوجد وقت لهذا كله ... لقد أتيت على عجل حتى أخبرك بما ينتظرك.*
مردخاي: خيراً ... تفضل ادخل أولاً والتقط أنفاسك.
النجار: حياتك في خطر يا صديقي. لقد استدعاني هامان مع عشرات النجارين وسهرنا الليل كله نصنع صليبا ضخماً وسمعناه يحكي أنه يعده لك أنت بالذات.
مردخاي: لا أتعجب أن تكون هذه هي نية هامان تجاهي.

* لم يذكر الكتاب المقدس أن هناك من حذر مردخاي من الصليب الذي أعده له هامان ولكننا نتصور أن هذا التصرف المنطقي ربما يكون قد حدث بالفعل.

النجار: تتكلم ببرود شديد، وكأنها ليست قضية حياة أو موت.

مردخاي: الحياة والموت بيدي الله القدير، أما هامان هذا فهو ليس إلا أحد الأدوات التي يستخدمها الرب لتتميم مشيئته.

النجار: أرجوك يا مردخاي اهرب فوراً ودعك من الفلسفة.

مردخاي: ماذا تقول؟ أرجل مثلي يهرب؟ لا تقلق يا صديقي. فهُوَذَا يُوجَدُ إِلهُنَا الَّذِي نَعْبُدُهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنَجِّيَنَا (دا٣:١٧)

النجار: كم أحترم هذا الإيمان لديكم أيها اليهود. ولكن واضح أننا نتكلم لغتين مختلفتين لن تتقابلا أبداً... على كل حال لقد فعلت ما يرضي ضميري وحذرتك.

مردخاي: أشكر محبتك الصادقة، وثق أني سأتخذ كافة التدابير لإفشال مخططه.

وتعانق الصديقان عناقاً حميماً وكلاهما يتساءل هل سيكون هذا هو آخر لقاء؟؟

وبمجرد إغلاق الباب ارتمت مريم عند قدمي مردخاي باكية:

مريم: يجب أن نهرب فوراً من شوشن.

مردخاي: لقد غلبك الخوف يا مريم ... لا تقلقي.

مريم: إذا لم أقلق عندما يعد هامان صليباً لك ... فمتى أقلق إذن؟

مردخاي: اذكري فرعون وموسى، داود وجليات، نبوخذنصر والفتية، داريوس ودانيال. وغيرهم الكثير.

مريم: ليس هذا وقتاً لدروس التاريخ، من محبة الرب لك أنه أرسل مَن يحذرك.

مردخاي: هذا ليس تاريخاً، بل هو الحاضر والمستقبل .. وهذه الأيام العصيبة ستكون جزءاً من تاريخ أمتنا.

مريم: وماذا إذا أصابك مكروه يا زوجي الحبيب؟

مردخاي: لقد خاطرت ابنتي بحياتها من أجل شعبها، ودخلت إلى دار الملك دون دعوة متسلحة بالصلاة والصوم، فهل تعتقدين أني أختلف عنها كثيراً؟

مريم: هي خاطرت بحياتها لإنقاذ الشعب، ولكن ماذا يستفيد الشعب من صَلبك؟

مردخاي: إني واثق أن الرب سيتمجد اليوم ... وإذا تكلمنا بلغة العقل فإننا لا يمكن أن نهرب من الإمبراطورية كلها، لذا سأذهب إلى عملي متسلحاً بإيماني.

وتعلقت مريم بعنق زوجها وأمطرته بقبلاتها، وهي لا تعلم إذا كانت ستراه ثانية أم لا ... ولكن مردخاي طمأنها بقدر ما استطاع وخرج إلى عمله وهو يردد ....

الرب راعيَّ فلا يعوزني شيء .... إلهنا ملجأنا وقوتنا ومعيننا في الشدائد ... اللهم باسمك خلصني وبقوتك احكم لي .... اللهم التفت إلى معونتي يا رب أسرع وأعني ... الساكن في عون العلي .

وفي طريقه إلى عمله في قصر الملك ألقى مردخاي نظرة تجاه قصر هامان فرأى صليباً شاهقاً يعلو أكثر من جميع المباني في شوشن ولكنه استكمل مزاميره .....

لماذا ارتجت الأمم .. الساكن في السموات يستهزئ بهم.

وكان منظر الصليب الشاهق مثيراً للتساؤل والدهشة لكل أهل شوشن الذين فوجئوا به قائماً في قصر هامان بين عشية وضحاها، واستبد الفضول بأهل المدينة فتناثرت الشائعات .... ولم يكن أمامهم سوى التقصي عن الحقيقة من النجارين والعمال الذين شيدوه، فعرفوا الحقيقة.

وأشفق معظمهم على مردخاي المسكين الذي سيلقى حتفه بهذه الميتة البشعة، أما الأقلية العابثة فقد أعدت نفسها للتسَّلي بمنظر مثير لا ينمحي من الذاكرة.

ووقف مردخاي كعادته يحرس باب القصر .. وأتى هامان في موكبه الفخيم، وكالعادة سجد أمامه كل من مر به. بينما ظلت رأس مردخاي شامخة لا تسجد إلا لربها.

ولكن نظرة هامان لم تحمل مشاعر الغيظ والغضب المعتادة، بل حملت مشاعر اللهفة والترقب. فما هي إلا دقائق ويخرج بعدها بحكم الإعدام، ليكبل يدي مردخاي ويستعذب ما سيحل به من عذاب، ووصل هامان للملك فبادره قائلاً:

الملك: جميلٌ أنك أتيت مبكراً لأني أحتاج إليك في أمر هام.

هامان: وأنا أيضا يا سيدي أريدك في أمر شديد الأهمية.

الملك: حسناً ... سأنصت إليك بعد أن آخذ رأيك فيما أريد.

هامان: سمعاً وطاعة يا جلالة الملك.

الملك: قل لي، مَاذَا يُعْمَلُ لِرَجُل يُسَرُّ الْمَلِكُ بِأَنْ يُكْرِمَهُ؟

واتسعت ابتسامة هامان ولم يخالجه ذرة شك أنه هو المراد تكريمه. فهو الرجل الثاني في المملكة، ومحل ثقة الملك ولا يوجد له منافس على الساحة حالياً. وشعر أن موكب تكريم في الصباح قد يكون المبرر الوحيد الذي يؤجل صلب مردخاي حتى المساء.

هامان: إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يُسَرُّ الْمَلِكُ بِأَنْ يُكْرِمَهُ يَأْتُونَ بِاللِّبَاسِ السُّلْطَانِيِّ الَّذِي يَلْبَسُهُ الْمَلِكُ، وَبِالْفَرَسِ الَّذِي يَرْكَبُهُ الْمَلِكُ، وَبِتَاجِ الْمُلْكِ الَّذِي يُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، وَيُدْفَعُ اللِّبَاسُ وَالْفَرَسُ لِرَجُل مِنْ رُؤَسَاءِ الْمَلِكِ الأَشْرَافِ، وَيُلْبِسُونَ الرَّجُلَ الَّذِي سُرَّ الْمَلِكُ بِأَنْ يُكْرِمَهُ وَيُرَكِّبُونَهُ عَلَى الْفَرَسِ فِي سَاحَةِ الْمَدِينَةِ، وَيُنَادُونَ قُدَّامَهُ: "هكَذَا يُصْنَعُ لِلرَّجُلِ الَّذِي يُسَرُّ الْمَلِكُ بِأَنْ يُكْرِمَهُ."

الملك: أَسْرِعْ وَخُذِ اللِّبَاسَ وَالْفَرَسَ كَمَا تَكَلَّمْتَ، وَافْعَلْ هكَذَا لِمُرْدَخَايَ الْيَهُودِيِّ الْجَالِسِ فِي بَابِ الْمَلِكِ. لاَ يَسْقُطْ شَيْءٌ مِنْ جَمِيعِ مَا قُلْتَه! (أس٦:٦-١١)

ونزلت كلمات الملك كالصاعقة على هامان الذي وجم كأن على رأسه الطير ولم ينبس ببنت شفة، مما أثار دهشة الملك فناداه بصوت مرتفع:

الملك: هامان ... هامان

هامان: ..... "صمت تام"

الملك: هامان ما بك؟ هل أنت مريض؟

هامان: ..... "صمت تام"

الملك صارخاً: ألا تسمعني؟ ماذا أصابك يا رجل؟ .... اذهب فوراً لتكريم مردخاي بواب القصر.

هامان: سمعاً وطاعة، ولكن .. لكن.. كنت أريد أن أقول ....

الملك: نعم نعم لقد تذكرت أنك كنت تريد أن تطلعني على أمر هام، فما هو أيها الصديق العزيز الوفي؟؟

هامان: آه .. إنه ... لا .... ليس الآن .... ربما فيما بعد.

الملك: يبدو أنك لم تنَم جيداً ليلة الأمس. أنا أيضاً عانيت من الأرق فطلبت كتاباً فقرأ الخادم لي كيف أن مردخاي أنقذ حياتي.

بعد عودتك من موكب تكريم مردخاي المحبوب، اخلد إلى فراشك واسترح حتى تكون متيقظاً في سهرة الليلة عند الملكة أستير وهناك تحكي لي عما كنت تود أن تخبرني به.

أراك مساءً يا عزيزي.

وخرج هامان من محضر الملك وهو يحمل على منكبيه أطناناً من الهموم، وقدماه لا تحملانه وعيناه غائمتان وصوت الملك يرن في أذنيه "وَافْعَلْ هكَذَا لِمُرْدَخَايَ الْيَهُودِيِّ الْجَالِسِ فِي بَابِ الْمَلِكِ ..... لاَ يَسْقُطْ شَيْءٌ مِنْ جَمِيعِ مَا قُلْتَه."

واقترب هامان من بوابة القصر واستجمع ما تبقى من قواه الخائرة لينادي بصوت عالٍ .... : "مردخاي تعالَ هنا فوراً."

ورغم سلام الله الذي يفوق كل عقل الذي غمر قلب مردخاي إلا أن إبليس رمى الرجل التقي بآخر سهم في جعبته فقال له:

"ها هو الوحش الكاسر قادم ليلتهمك.. ففيم سينفعك إلهك ؟ .."

ولكن مردخاي أكمل صلاته ومزاميره وهو يتجه بخطى واثقة صوب هامان.

مردخاي: سمعاً وطاعة سيدي هامان.

هامان: الملك أمر أن ..... أمر أن ..... أمر أن تلبس الملابس الملكية، وتركب الفرس الملكي، وأن أسير أمامك في ساحة المدينة لأخبر الشعب أن هذا هو التكريم اللائق بك.

مردخاي: ..... أنا؟

هامان: نعم أنت أيها الحارس . ألم تسمعني؟ ..... ألعلك أصم؟

مردخاي: سمعاً وطاعة يا سيدي .. سمعاً وطاعة.

وسار مردخاي مع هامان ومزامير الحمد والشكر تتدافع إلى فكره ولسانه لا يعرف أيها يختار..... أَيُّهَا الرَّبُّ سَيِّدُنَا، مَا أَمْجَدَ اسْمَكَ فِي كُلِّ الأَرْضِ ..... أَحْمَدُ الرَّبَّ بِكُلِّ قَلْبِي. أُحَدِّثُ بِجَمِيعِ عَجَائِبِكَ. الرَّبُّ يُمِيتُ وَيُحْيِي. يُهْبِطُ إِلَى الْهَاوِيَةِ وَيُصْعِدُ. الرَّبُّ يُفْقِرُ وَيُغْنِي. يَضَعُ وَيَرْفَعُ. يُقِيمُ الْمِسْكِينَ مِنَ التُّرَابِ. يَرْفَعُ الْفَقِيرَ مِنَ الْمَزْبَلَةِ لِلْجُلُوسِ مَعَ الشُّرَفَاءِ وَيُمَلِّكُهُمْ كُرْسِيَّ الْمَجْدِ.

هامان: ماذا تقول أيها الرجل؟

مردخاي: لا شيء سيدي، إنني أشكر إلهي الذي تعطف عليَّ.

هامان: إنه الملك الذي تعطف عليك وليس إلهك.

مردخاي: ولكن لماذا كل هذا التكريم؟ أنا لا أستحق كل هذا!

هامان: بالفعل لا تستحق، ولكن الملك تذكر فجأة أنك قد وشيتَ بزملائك وتسببت في الحكم بإعدامهما.

مردخاي: ولكن هذا الموضوع مر عليه زمن طويل حتى نسيتُه.

هامان: لا أعلم لماذا تذكره الملك في هذه الليلة بالذات؟

مردخاي: لِكُلِّ شَيْءٍ زَمَانٌ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ تَحْتَ السَّمَاوَاتِ وَقْتٌ (جا٣:١)

هامان: كفاك فلسفة أيها البواب وتقدم لارتداء الثوب الملكي لأول وآخر مرة في حياتك. ... قالها هامان وهو يضع السترة الملكية على كتفي مردخاي ويود لو مد يديه ليخنقه!! أو تنشق الأرض لتبلع عدوه ... أو حتى تبتلعهما معاً فالموت أرحم مما هو مجبر أن يفعله.

وتحت سمع وبصر العبيد والخدم قام هامان بنفسه ليساعده في الجلوس على الفرس الملكي ويبدأ الموكب الفريد.

هامان يقود موكب تكريم مردخاي

مردخاي: سيدي هامان .. أنا لا أستحق كل هذا ...فلتسمح لي أن أنزل من على هذا الفرس.

هامان: اصمت أيها الحارس.. فصوتك يؤرقني ويثير اشمئزازي. فكلانا يجب أن ينفذ الأوامر الملكية ... احتفظ برأيك لنفسك.

مردخاي: صدقني أنني لم أفكر أبداً في هذا التكريم ولم أسعَ إليه لأنه يُخجِل شخصي البسيط.

هامان: للمرة العاشرة أقول لك اصمت حتى أؤدي عملي ....

وشعر هامان أن كل حرف ينطق به مردخاي هو خنجر يُغمَد في أحشائه وأن أفضل طريقة يُخرسه بها هي أن يهتف بأعلى صوته:

«هكَذَا يُصْنَعُ لِلرَّجُلِ الَّذِي يُسَرُّ الْمَلِكُ بِأَنْ يُكْرِمَهُ».

«هكَذَا يُصْنَعُ لِلرَّجُلِ الَّذِي يُسَرُّ الْمَلِكُ بِأَنْ يُكْرِمَهُ».

واجتذب الموكب والنداء أهل المدينة فتجمهروا ليفركوا أعينهم وآذانهم غير مصدقين ما يرون وما يسمعون، واتهموا النجارين بالتضليل. فأخذوا يرددون ما سمعوا أن هامان سيصلب مردخاي، فإذا به يسير أمام الفرس ويهتف له !!!

وطار الخبر سريعاً لبيت هامان فأتى أبناؤه ليراقبوا المشهد في خزي وعار ووقعت عينا هامان عليهم فانفجرت الدموع من مقلتيه وتمنى أن تنشق الأرض وتبتلعه ..... ورفع أصغر أبنائه صوته هاتفاً باكياً:

كفاك يا أبي ... لا تهدر كرامتك أكثر من ذلك.

أنزل هذا البواب من على الفرس واركب أنت عليها

ولكن هامان استرسل بصوت أعلى:

«هكَذَا يُصْنَعُ لِلرَّجُلِ الَّذِي يُسَرُّ الْمَلِكُ بِأَنْ يُكْرِمَهُ».

«هكَذَا يُصْنَعُ لِلرَّجُلِ الَّذِي يُسَرُّ الْمَلِكُ بِأَنْ يُكْرِمَهُ».

وحاول هامان أن يكرر النداء بأعلى صوت حتى لا يسمع لهمهمات الشعب التي تخترق أذنيه

- يا للشائعات الكاذبة .... إنه يحب مردخاي ...
- كلا بل كان ينوي أن يصلبه ....
- كيف يخطط لصلبه ليلاً ويقوم بتكريمه صباحاً؟
- لا بد أن أمراً ما قد تغير.
- ما الذي يمكن أن يحدث عبر سواد الليل؟
- الآن لا نعرف ولكن لا بد أن تظهر الحقيقة إن عاجلاً أو آجلاً.
- ولماذا لا تقول أن النجارين يكذبون علينا؟
- ولماذا يكذبون؟ ولمن الصليب إذن؟

وتخترق التساؤلات أذني هامان فيزداد وجهه احمراراً ويجز على أسنانه ويغمض عينيه لئلا تسجل ذاكرته أسوأ أيام حياته.

ومن ناحية أخرى طار الخبر إلى بيت مردخاي، حيث كانت مريم ساجدة تتضرع للرب أن ينقذ حياة زوجها. فلما سمعت* طرقات عنيفة على الباب وصوت إحدى الجارات تناديها باسمها توجس قلبها خيفة من وقوع المحظور ... ففتحت الباب بيد مرتعشة لتجد جارتها متهللة تشدها مسرعة حتى ترى بعينيها تكريم زوجها!!

وهرولت السيدتان، ومريم تحاول دون جدوى أن تفهم ما تقوله جارتها. وأخيراً وصلت مريم لاهثة وقطرات العرق تبلل جبينها

* لم يذكر الوحي المقدس هذه التفاصيل عن رؤية أسرة هامان له أو أسرة مردخاي أثناء موكب التكريم ولكننا نعتقد أنه من المنطقي أن يكون هذا قد حدث بالفعل.

لتشهد أغرب منظر تتوقعه! مردخاي بالملابس الملكية على الفرس وهامان يهتف أمامه!! وفركت عينيها عدة مرات لتتأكد هل هذا حلم أم عِلم؟

فلما تيقنت أنها لا تحلم، انطلقت منها صلوات الشكر والتسبيح، ورفع مردخاي رأسه، ليتبادل مع زوجته بلغة العيون تهنئة بالنصر العظيم الذي فاق أحلى أحلامهما.

وانفض الموكب قبيل الغروب ليعود هامان إلى بيته محطم البدن والنفس، فقدماه تئنان من كثرة ما مشى أمام فرس مردخاي، ونفسه تبكي ... تصرخ .. تنوح ... وكل ذرة في داخله تأبى أن تصدق أن العظيم المدعو هامان قد لاقى كل هذا الذل والهوان، وأن اليوم الذي اختاره للخلاص من عدوه يمضيه في تكريم سموه!!

وتساءل في نفسه فيم أخطأت؟

هل أغضبت الآلهة؟

يبدو أني أغضبتها بعدم استشارتها قبل صلب مردخاي.

كان يجب ألا أتسرع وأن ألقي قرعة لأعرف رأي الآلهة كما فعلت يوم اخترت موعد الخلاص من اليهود في آذار المقبل.

ودخل هامان داره والدم يكاد ينبثق من وجهه الأحمر وعيناه جاحظتان من الغيظ، يجر رجليه جراً باحثاً عن أول مقعد يتهالك عليه ليجتمع حوله أبناؤه وزوجته يمطرونه بالأسئلة:

- ألم تذهب لمقابلة الملك لإعدام مردخاي؟

- ماذا حدث؟

- لماذا قبلت هذه المهمة المهينة؟

- أما كنت تستطيع أن ترفض؟

ووسط طوفان الأسئلة استرحمهم هامان أن يتركوه دقائق لعله ينام قبل الذهاب لوليمة أستير. ولكنهم صمموا أن يستكملوا الاستجواب الذي أنهته زرش زوجته بتلك الكلمات التي كان قد بدأ يدركها ولكنه يحاول أن يهرب من سماعها:

إذا كَانَ مُردَخَايُ الَّذِي ابتَدَأتَ تَسقط قدامهُ من نسل اليهود، فَلاَ تقدر عليه، بل تَسقط قدامه سقوطا. (أس٦:١٣)

وقبل أن يجد للنوم وقتاً كان وكلاء الملك قد أتوا ليصطحبوه إلى وليمة أستير فاستبدل ملابسه على عجل، والتعب يتغلغل داخل كل خلية من جسده... وهو يلعن مردخاي وأستير والملك... ولسان حاله يقول: "ما لي أنا وتلك الملكة غريبة الأطوار التي تدعوني لأحضر ما ستطلبه من زوجها؟" فليذهب كلاهما إلى الجحيم ويتركوني لما أنا فيه من كرب وبلاء.

من يحفر حفرة يسقط فيها (أم٢٦:٢٧)

ومن جانب آخر كانت الاستعدادات تجري على قدم وساق في قصر أستير وقد أصبحت سيرة هامان مضغة في أفواه رجال القصر والخدم، بل وحتى العبيد. ولم يستطع كثيرون إخفاء شماتتهم فيه. وأخذوا يتندرون على منظره وهو يمشي مهللا يهتف لمردخاي بينما الصليب الذي يعلو شاهقاً في حديقة قصره يفشي بكل نواياه الخبيثة.

وأخيراً وصل هامان محبطاً منهكاً، حتى أن الملك بادره:

الملك: ما بالك مُتعَب هكذا، ظهرك محني وأكتافك متهدلة وجفونك تخونك هل تعبت من تكريم مردخاي؟

هامان: إنها ضغوط العمل بصفة عامة ومسئولياته الجسيمة.

الملك: لعل سهرة هذه الليلة تُسَرِّي عنك يا هامان. ألا تتوق لمعرفة سر أستير؟

هامان: بالطبع يا جلالة الملك. لماذا خاطرت الملكة بحياتها؟

الملك: هذا ما سنعرفه بعد قليل ... أنا سعيد لأنك تشاركني هذه اللحظة المثيرة.

وامتدت الموائد الفاخرة وأشرفت أستير بنفسها على تقديم أشهى الأطباق لضيفيها المرموقين وصبت أقداح الخمر الذي يفضله كل منهما .. واستبد الفضول بالملك فلم يحتمل المزيد من التشويق فقال:

الملك: «مَا هُوَ سؤالكِ يا أستير الملكة فيُعطى لكِ؟ وَمَا هِيَ طِلبتكِ؟

أستير: هل أصارحك بكل ما يؤرقني؟

الملك: بالطبع يا زوجتي الحسناء

أستير: قد يكون ما أطلبه صعب المنال.

الملك: أعدك بتلبية طلبتك ... وَلَوْ إِلَى نِصْفِ الْمَمْلَكَةِ تُقْضَى.

أستير: إن حياتي وحياة شعبي في خطر داهم يا سيدي.

الملك: ماذا تقولين؟ .... مليكتي ... في حمايتي .. وتشعر أن حياتها في خطر؟!

أستير: نعم يا جلالة الملك لذا أسألك إن كنتُ قَد وَجَدْتُ نِعمَة فِي عينَيكَ أيها الملك، وإذا حسُنَ عندَك، فإن سؤالي هو أن تحفظ حياتي وحياة شعبي. لأنه قَد تم بيعي أنا وشعبِي ... ولو أن العدو باعنا عبيداً وَإمَاءً لما تكلمت لئلا أزعجك. ولكن العدو يريد لنا الهلاَك والقَتلِ وَالإبادة.

الملك: مَنْ هُوَ؟ ... من ذا الذِي يتجاسر على أن يعملَ هكذا؟

وران على القاعة لحظات من الصمت المريب الرهيب....

شعر هامان خلالها ببلادة عجيبة تتملكه، فلم يستطع ذكاؤه البشري -أو بالأحرى الشيطاني- أن يربط الخيوط ببعضها أو يتوقع أي صلة بين أستير الملكة ومردخاي البواب

وأخيرا رأى أصبع أستير يرتفع ببطء مشيراً إليه وهي تقول:

أستير: إن هذا الخصم والعدو هو هامان الشرير ..... الذي دبر

مؤامرة كبيرة نتيجة خلاف شخصي مع مردخاي، فأراد الانتقام منه والتنكيل بكل شعبه من اليهود.

أستير تتهم هامان علانية أنه يسعى لقتلها مع شعبها

واكفهرت الأجواء ... واحتقن وجه الملك وشعر بالدم يغلي في عروقه بعد أن فهم أن أستير يهودية، وأنه قد وقـَّع بنفسه على أمر إعدامها وإعدام شعبها ... ونظر إلى هامان بعينين تقدحان شرراً قبل أن يخرج إلى الحديقة حتى يفكر بروية ويجد نسمة هواء تبرد من نار الغيظ التي تتأجج في داخله.

أما هامان فقد شحب وجهه وتداعى إلى سمعه صوت زوجته:

"إذا كَانَ مُردَخَايُ الَّذِي ابتَدَأتَ تَسقط قدامهُ من نسل اليهود، فَلاَ تقدر عليه، بل تَسقط قدامه سقوطا."

وشعر أن ورطة ذلك الصباح ليست إلا نزهة بديعة إذا ما قورنت ببلاء تلك الليلة الليلاء! فوقف يستعطف أستير.

هامان: أقسم لجلالتك أني لم أكن أعلم أنك يهودية.

أستير: أعلم ذلك ... ولكن لماذا كل هذا الشر تجاه آلاف مؤلّفة من نساء وأطفال ورجال سعيت لإبادتهم نتيجة خلافك مع رجل واحد؟

هامان: لم أكن أعلم أن جلالتك تنتمين لهذا الشعب.

أستير: وهل الخير يُقدَّم للملوك والعظماء فقط .. أما غيرهم فيبادون كالحشرات أو الدواب؟

هامان: سيدتي .. امنحيني فرصة أخيرة لأثبت لك حسن نيتي ....

وأيقن هامان أن الملك إذا عاد قبل أن تعفو عنه الملكة فلا شك أنه سيصب عليه جام غضبه فتهاوى ساجداً تحت قدميها متشبثاً بأهداب ثوبها، أو بالأحرى متشبثاً بحياته... التي أصبحت رهن مشيئتها. ولكن الملكة تخلصت منه سريعاً وهي تقول له:

أستير: لقد خرج الموضوع من يدي فلتتفاوض مع الملك.

هامان: أقبّـِل قدميكِ ... كلمة منك ستحل سوء التفاهم

ولم تجد أستير سبيلاً للتخلص من هذا اللحوح اللزج سوى الإسراع إلى غرفة النوم والاحتماء بفراشها لعله يستحي أن يتعقبها إلى مخدعها ... ولكن الرجل الذي كان يدافع عن حياته لم يفكر للحظة أن يتراجع فاندفع وراءها مكرراً أعذاره التي هي أقبح من ذنوبه ...

وفي تلك اللحظة كان الملك قد عاد من الحديقة ليجد هامان وأستير قد تركا القاعة وعرف من الخدم أن أستير قد هربت إلى غرفة نومها وأن هامان قد طاردها إلى هناك فهرول مسرعاً واقتحم الغرفة ليجد هامان على سرير الملكة متشبثاً بثوبها وهي تسعى جاهدة أن تتخلص منه فصرخ بكل ما فيه من غضب وثورة:

"أتتحرش بالملكة في القصر أيها الشرير؟"

وكان "حربونا" أحد خصيان الملك حاضراً، فأدرك أن حكم الموت على وشك الصدور على هامان البغيض .. وهو ما كان يتمناه من كل قلبه، فبادر بتغطية وجهه ..... إشارة ضمنية إلى توقع إعدامه -لأن الملك لا ينظر لوجه المحكوم عليهم بالإعدام- بل وبادر باقتراح منطقي بشأن وسيلة الإعدام:

حربونا: هُوَذَا الْخَشَبَةُ أَيْضًا الَّتِي عَمِلَهَا هَامَانُ لِمُرْدَخَايَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِالْخَيْرِ نَحْوَ الْمَلِكِ قَائِمَةٌ فِي بَيْتِ هَامَانَ، ارْتِفَاعُهَا خَمْسُونَ ذِرَاعًا!!

الملك: اصْلِبُوهُ عَلَيْهَا. (أس٧:٩)

وتعالت صرخات هامان من تحت الملاءة التي غطوا بها وجهه .... سيدي الملك .. أنا بريء .. أنا عبدك المخلص الوفي ... ولكن صرخاته المكتومة ذهبت أدراج الرياح، فالحكم قد صدر بناءً على واقعة تـلـبُّس شاهدها الملك بنفسه.

ورغم أن مردخاي لم يشعر بالشماتة وهو يرى خصمه مكبلاً .... يساق كالإبل إلى الصليب الرهيب الذي أعده بنفسه ..... لنفسه!!

إلا أنه استرجع كلمات الرب الصادقة التي طالما حفظها منذ حداثته:

كَمَا فَعَلْتَ يُفْعَلُ بِكَ. عَمَلُكَ يَرْتَدُّ عَلَى رَأْسِكَ. (عو١٥)

إِنَّ الْحَارِثِينَ إِثْمًا، وَالزَّارِعِينَ شَقَاوَةً يَحْصُدُونَهَا. (أي٤:٨)

مَنْ يَحْفِرُ حُفْرَةً يَسْقُطُ فِيهَا وَمَنْ يُدَحْرِجُ حَجَرًا يَرْجِعُ عَلَيْهِ (أم٢٦:٢٧)

وفي الطريق إلى الصليب سمع هامان أصواتاً يعرفها جيداً ...

فلطالما أنصت إليها وهي تمتدحه وتنافقه وتتغنى بحكمته.

ولكن ها هي نفس الألسن اليوم تسبه بأقذع الألفاظ وتذكر كل جرائمه التي كان يظن أن الناس نسوها أو غفروها، ولولا أن العبيد كانوا يقتادونه إلى الصلب لأسرع الخطى هرباً من معايرة الشعب.

وأخيراً يصل هامان إلى منزله مكبل اليدين معصوب العينين لتعرف أسرته الحكم الصادر ضده وتختلط صرخاتهم معاً.

وتتحقق رغبة الأبناء الذين اشتهوا أن يروا مشهد الصلب* فرأوه.

رأوا دموع المصلوب ودماءه، وسمعوا أنينه وصراخه والطيور

---

* لعل صرخات هامان وأبنائه وهم يكتشفون أنهم انهزموا في معركة الصليب تُذكِرنا بصرخات إبليس وجنوده عندما اكتشفوا أن المصلوب قد نزل إلى الجحيم ليفتح الأبواب الدهرية ويأخذ معه كل من رقد على الرجاء ويدخله إلى الفردوس أما هم فقد جردهم من سلطانهم وفضحهم علنا (كو٢:١٥)

الجوارح تنهش لحمه وتفقأ عيونه ... ولكن المصلوب كان أباهم وليس مردخاي!!

وعندئذ لم يكن غريباً أن تخبر أستير الملك أن مردخاي هو ابن عمها. والأهم هو أنه أبوها بالتبني، فيستدعي الملك مردخاي ليخبره أنه قد عيَّنه مكان هامان وأن ختم الملك أصبح أمانة بين يديه لأنه لن يسيء استخدامه كما فعل هامان. بل إن القصر الذي كان هامان يسكنه أصبح مسكناً لمردخاي بحكم أنه احتل وظيفته.

ورغم اتضاح الأمور وافتضاح المؤامرة، إلا أن الأمر الملكي الذي صدر والذي يسمح للشعوب بقتل اليهود ونهب ممتلكاتهم ظل سارياً، ولا يمكن إلغاؤه بمقتضى شريعة فارس التي تنص على أن الأوامر الملكية لا تُلغَى ولا حتى بأمر الملك نفسه*!! وقد بقى على تنفيذه أقل من تسعة أشهر.

لذا فقد دخلت أستير إلى الملك ثانية تستعطفه. ولكن الأمر لم يكن سهلاً فالعالم كله يعرف أن شريعة فارس لا تُنسَخ (لا تتغير) وأن كلام الملك لا يُرَد. وصلَّت أستير كي يهبها الرب حكمة.

---

* كان هذا النص في الدستور الفارسي معبراً عن مدى كبرياء وغطرسة حكامها. فكلامهم لا يُلغَى وكأنهم آلهة!! ولكن الحقيقة هي أن الله وحده هو الذي لا يسقط حرف أو حتى نقطة من كلامه .... ورغم ذلك فالله لا يمانع أن يرجع عن غضبه إذا رأى توبة صادقة من عبيده فيغفر خطايانا بل وينساها كأن لم تكن.

أستير: سيدي ومولاي الملك لا أعرف كيف أبدي عظيم شكري وامتناني لما فعلته بتخليصنا من هامان الشرير، لقد قطعنا بذلك أكثر من نصف الطريق ولكن ... ما زال الأمر الصادر منذ شهرين بإمكانية قتلنا وسلبنا قائما ولم يتم إلغاؤه.

الملك: لا تطلبي المستحيل يا أستير ... فأنت تعرفين الشريعة.

أستير: إذا كان بالشريعة خطأ فلنصححه يا مولاي.

الملك: أنت تحلمين ... الشريعة لا تتغير لقد استلمناها هكذا من أسلافنا وسنسلمها كما هي لأبنائنا وأحفادنا.

أستير: إذا كان ملوك قبلك قد أخطئوا، فالتاريخ سيذكر لك شجاعتك في تصحيح أخطاء موروثة.

الملك: كلامك يبدو مقنعاً ... ولكنه يهز ثقة الشعب في كلام الملك فيما بعد، كما أن القرار ليس في يدي وحدي بل هناك مئات من الحكماء والمستشارين الذين سيدرسون الأمر قبل تغيير الشريعة وهو ما قد يستغرق سنوات وليس بضعة شهور.

أستير: أثق في حكمتك ورحمتك يا مولاي، وأثق أنك لا ترضى أن يُهرَق دم آلاف الأبرياء نتيجة شر هامان، ونتيجة شريعة تتمسك بالخطأ حفاظاً على هيبة الملك ... هيبتك يا مولاي في إقرار العدل وليست في الرضا بالظلم.

الملك: رغم اقتناعي، ورغبتي في مساعدتك إلا أني لا أستطيع.

عند هذا الحد كانت أستير قد سقطت متضرعة عند قدمي الملك وانسابت من العيون الجميلة قطرات متتابعة من الدموع لم تبلل وجنتيها فقط بل أغرقت قدمي الملك!!

الملك: أستير يا حبيبتي ... دموعك تعذبني.. ولا أجد مخرجاً ينقذنا جميعا من تلك الورطة، اجتهدي مع مردخاي وابحثا عن مخرج قانوني يحقق العدل ولا يكسر الشريعة.

وللوقت كان أستير ومردخاي وزمرة من رجال القانون والشريعة يبحثون عن المخرج القانوني فيتباحثون ويتداولون حتى اهتدوا إلى حل يحقق العدل ولا يلغي الأمر الأول فلا يهدر كرامة الملك.

ووقف مردخاي أمام الجمع الحاشد مرتديا الملابس الملكية بألوانها الزاهية ... الأزرق والأبيض والأحمر وتاج ذهبي يكلل هامته ويعكس نوراً قوياً بهياً في عيني كل من يتطلع إليه، وأعلن أمام الجمع المحتشد من اليهود وغيرهم عن إصدار أمر ملكي جديد يعطي اليهود الحق أن يتجمعوا في ذلك اليوم (١٣ آذار) في مواقع حصينة ويتسلحوا حتى يدافعوا عن أنفسهم فلا يصيبهم أذى لو حاول أحد تنفيذ الأمر الملكي السابق.

وسادت الاحتفالات في كل بيت يهودي من الهند شرقاً إلى الحبشة غرباً، الجميع يتبادلون التهاني ويرفعون صلوات الحمد والشكر للجالس على العرش الذي - كعادته- نجاهم من موت محقق ولم

يخذلهم. فحل الفرح محل الترح بعد شهرين من الهم والغم ظنوا خلالهما أنهم سيبادون حتماً.

وانطلق فرسان الملك يحملون الأمر الجديد وينشرونه بكل اللغات في جميع أرجاء الإمبراطورية المترامية الأطراف.

ولكن الأمر العجيب فعلاً كان هو رد فعل سائر الشعوب الذين رأوا كيف يدافع الله عن هذا الشعب الضعيف المسبي المشتت ... ولكنه قوي جداً جداً بإلهه!! فبادر كثير من الشعوب بالتهود (أي الإيمان بإله اليهود) وعبادة الإله الحي. رغم أن هذا القرار في ذلك التوقيت كان يهدد بوضعهم تحت نير قرار الإعدام الصادر أولاً، ولكن فرحة من تنفتح عيناه بعد طول الظلمة تجعله لا يبالي بمثل هذه الأمور التي تبدو عندئذ تافهة.

وخلال تلك الشهور التسعة سطع نجم مردخاي عالياً في سماء الإمبراطورية فهو الرجل المهيب المحبوب الذي يكِّن له الشعب كل احترام وود. والذي عوضهم عما لاقوه من إذلال وهوان في عهد الشيطان المدعو هامان.

ولكن إعدام هامان وصدور القرار الثاني لم يكونا نهاية المطاف بالنسبة لأتباعه وأسرته -هؤلاء الذين زال عنهم الجاه والسلطان في يوم وليلة. فأخذوا يدبرون المؤامرات والخطط، منتظرين اليوم الموعود لينتقموا من جنس اليهود تحت قيادة أبنائه العشرة.

فلما جاء يوم تنفيذ الأمر الملكي، وهو ١٣ آذار - حسب القرعة التي أجراها هامان- انطلقوا كالذئاب الجائعة بزعامة أبناء هامان محاولين إيذاء اليهود في شوشن العاصمة .... وللأسف لم يفهموا أن الله الذي أذل هامان ورفع مردخاي هو الذي يدافع عن شعبه.

فخرجوا مدججين بالأسلحة ظانين أنهم سينتقمون لدم هامان ويعيدون لأنفسهم السلطان الذي أصبح في خبر كان!!..

وكانت النتيجة الحتمية أن اليهود دافعوا عن أنفسهم بموجب الأمر الملكي وأهلكوا خمسمائة رجل من فلول هامان في العاصمة شوشن وعلى رأسهم أبناء هامان الذين عُلِّقت جثثهم على الصلبان حتى يكونوا عِبرة لمن يتجاسر ويعاند إرادة الله.

وخارج شوشن وفي ١٢٧ قطراً تشكل الإمبراطورية الضخمة، كان هناك أيضاً الكثيرون ممن ظنوا أن الفرصة مواتية لقتل اليهود وسلب أملاكهم ... ولكنهم واجهوا نفس المصير على مدى ثلاثة أيام فهلك منهم - للأسف - ٧٥ ألفاً ...

على أن اليهود التزموا في تلك المعارك الدفاعية ألا تمتد أيديهم إلى سلب أو نهب أعدائهم، فكل ما في الأمر أنهم دافعوا عن حياتهم فحسب .... وكان هذا السلوك الراقي سبباً في ازدياد هيبة اليهود واحترامهم في كل البلدان وسعي المزيد من الناس إلى التهود حتى يكونوا في حمى ذلك الإله الجبار.

وأخيراً ... وبعد طول عناء، تنفس الشعب الصعداء. وتهللت الألسن بالشكر والثناء، فأبهجت ساكن السماء، الله القدير الذي طالما اعتاد أن يجد من بنيه الجحود والنسيان بدلاً من الشكر والعرفان.

مردخاي: ما أعظمك يا إلهنا الحنون ... أما حان وقت التسبيح يا هِدَسَّة ... ألا زلت تحتفظين بقيثارتك.

أستير: آه يا أبي ذكرتَّني بالاسم المحبوب ... إن قيثارتي لم تفارقني منذ غادرت منزلنا وأوتارها تكاد تحفظ المزامير حفظاً.

قالت أستير هذه الكلمات وأناملها تداعب الأوتار فتبدأ في شدو رقيق

مردخاي: أعظِّمُكَ يا رَبُّ لأنَّكَ احْتَضَنْتني، ولَمْ تُشمِت بي أعْدائي.

أستير: أيُّها الرَّبُّ إلَهي صَرخْتُ إليْكَ فَشفَيْتني.

مردخاي: أصْعَدتَني مِنَ الجَحيم وخلَّصْتَني مِنَ الهابِطينَ في الجُبِّ.

أستير: رَتِّلوا للرَّبِّ يا جَميعَ قِدّيسيهِ، واعْتَرفوا لذِكْرِ قَداسَتِه

مردخاي: لأنَّ للحْظَة غَضَبَه، وحَيَاْة في رِضاه.

أستير: في العَشاءِ يَحلُّ البُكاءِ وفى الصَّباحِ السُّرورُ.

مردخاي: أَنا قُلتُ في طُمأْنينَتي لا أتَزعْزَعُ إلَى الدَّهْر،

أستير: سَمعَ الرَّبُّ فَرحِمَني، الرَّبُّ صارَ لي عَوْناً،

مردخاي: حَوَّلتَ نَوْحي إلَى فَرَح، مزَّقْتَ مِسْحي ومَنْطَقْتَني سُروراً لِكيْ تُرَتل لَكَ نَفْسي ولا يَحْزَنُ قَلْبي. هَلِّلُويا. (أجزاء من مز ٣٠)

أستير: آه يا أبي كم رتلت المزامير التي علمتني إياها وحدي ولكن ترتيلها معك يجعل لها تعزية خاصة.

مردخـاي: طبعـاً يـا بنيتـي فلـيس أجمـل ولا أروع مـن أن يجتمـع المؤمنون معاً ليسبحوا الرب الإله.

أستير: يجب أن تذكر الأجيال القادمة عمل الله العجيب معنا.

مردخاي: للأسف الإنسان سريع النسيان. فقد يكون ما حدث معنا مجرد صفحة من التاريخ يطويها الزمان فتنساها الأجيال القادمة.

أستير: لا يا أبي .. فلنجعل يومي ١٤ و١٥ آذار عيدا سنوياً نحتفل به لئلا ننسى مراحم الرب وإحساناته. ونسميه عيد مردخاي.

مردخاي: حاشا ... من أنا حتى يكون هناك عيد باسمي؟

أستير: لولا جهادك يا أبي لما نجونا.

مردخاي: بل لولا نعمة الله لما نجونا.

أستير: والله يسكب نعمته بوفرة على من يجاهد بأمانة .... والآن ماذا سنسمي العيد يا أبي.

مردخـاي: نسميه عيد الفوريم (القرعة باللغة الفارسية) حتى يثير الاسم فضول أطفال الأجيال القادمة، فيسألوا ويعرفوا كيف عمل هامان قرعة ليختار يوم إبادتنا فجعل الله هذا اليوم لخيرنا ونصرتنا.

وهكذا صار عيد الفوريم من أبهج الأعياد اليهودية التي يحتفلون بها كل عام حتى لا ينسوا صنيع الرب وإحسانه.